دكتور السيد حسين جلال *

التاريخ الاجتماعى لسكان منطقة برزخ السويس

(فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر)

جغرافية برزخ السويس وأهميته :

يقصد بمنطقة برزخ السويس الجزء الواقع بين خليج الطينة شمالاً على البحر المتوسط ومدينة السويس جنوبًا على قمة خليج السويس. وهى أرض سهلة لاتخترقها عقبات طبيعية ولاتعترضها أى تضاريس يمكن آن تحول دون الحركة السهلة بين البحرين أو بين البرين الآسيوى والأفريقى ، والبرزخ صحراوى أو شبه صحراوى وكان أحد أفرع النيل يتجه شمالاً بشرق ليروى أطرافه الشمالية. كما أن عدم وجود عقبات نباتية ، كالغابات ، سهل أمر الحركة البشرية عبره خلال العصور التاريخية .

كما أن هذا البرزخ كان يتعرض أيضًا لطغيان الماء فى جزئه الشمالى أو الجنوبى أو كلاهما معًا فى بعض فترات العصر الجيولوجى الأخير والعصر الجيولوجى الحديث. لقد كان هناك ذراع ضحل من الماء يغطى خليج السويس خلال العصر الكربونى. كما يدل إرساب الصخور الرملية من الخرسان الجنوبى فى العصر الكرياسى الأسفل على أن البحر ظل طاغيًا فى منطقة الخليج من العصر الكربونى حتى العصر السينومانى. ولقد استمر هبوط الخليج فى أواخر الزمن لجيولوجى الثانى . وطغى الماء على حواف الخليج الجنوبية وانحساره عن حوافه الشمالية ، ثم حدث تجدد فى هبوط الخليج فى عصر الأيوسين الأوسط . ولقد خلقت هذه الحركات الأرضية لحديثة سلسلة من البحيرات الضحلة ، بعضها يمتد من خليج السويس شمالاً وينقطع عنه،

---

* كلية الآداب بدمنهور - جامعة الاسكندرية .

مثل البحيرات المرة وبحيرة التمساح ، وبعضها امتداد للبحر المتوسط جنوبًا مثل بحيرة المنزلة.

غير أن البرزخ الأرضى ظل موجودا خلال العصور التاريخية يصل بين اسيا وأفريقيا، أى أن هناك طريق برى يصل بين شمال سيناء والدلتا خلال التاريخ الإنسانى المعروف ويقع هذا البرزخ شمالى بحيرة التمساح وجنوبى طرف بحيرة المنزلة الجنوبى. أما البرزخ الذى يقع جنوبى بحيرة التمساح فلم يكن أرضا يابسة باستمرار فمن المؤكد أن البحيرات المرة كانت أكثر اتصالا خلال فترات أطول من الزمن بالطرف الشمالى لخليج السويس[١].

والطريقان البريان اللذان كانا يمران بهذه المنطقة هما: طريق وادى الطميلات والطريق الصحراوى أو طريق الحجاج، ويرجعان إلى عصر ما قبل الأسرات . وكانا يخرجان من مدينة منف ، وهى نقطة تلاقى أكثر الخطوط الرئيسية فى مصر ، ثم يتبعان ضفة النيل اليمنى حتى بابليون (مصر القديمة) ومنها إلى هليوبوليس (المطرية) حيث كانا يفترقان . فكان طريق وادى الطميلات يتجه نحو الشمال الشرقى أما الطريق الصحراوى فإنه بعد انفصاله عن الطريق السابق عند هليوبوليس كان ينثنى نحو الشرق ويتجه مباشرة نحو السويس مخترقًا الصحراء[٢].

وبرزخ السويس هو ملتقى البرين ومفرق البحرين ، وقد لعبت هذه المنطقة دوراً هامًا فى تاريخ مصر والإنسانية كلها ، فهى بحق مدخل مصر الشرقى، وعن طريقه دخلت جميع الهجرات البشرية من جنوبى غربى آسيا . كما أنه حلقة الوصل بين مصر وشقيقاتها العربيات فى جنوبى غربى آسيا . وعن طريقها شاركت مصر فى المؤثرات السامية أو العربية القديمة التى كانت تموج بها شبه جزيرة العرب وبلاد الشام .

عمال السخرة فى برزخ السويس :

جاء فى عقد الامتياز الثانى (٥يناير ١٨٥٦) بالمادة الثانية نص على أن عدد العمال المصريين الذين تستخدمهم الشركة يجب أن يكون على الأقل أربعة أخماس مجموع العمال. فقد كان يتعذر على الشركة أن تستخدم أفواجًا هائلة من العمال الأوربيين يقيمون فى صحراء برزخ السويس لتنفيذ المشروع فى مراحله الأولى، فقد كانت هناك مخاطر شديدة لاستخدام العمالة الأوربية على نطاق واسع أمر يكاد يكون مستحيل للشركة بعد تآسيسها للأسباب الآتية :

١- ارتفاع أجور العمال الأوربيين فى سبيل الإغتراب والعمل فى الصحراء وهو أمر لم تكن تستطيع أن تتحمله ميزانية الشركة الناشئة .

٢- إن إنتاجية العامل الأوربى منخفضة بالنسبة للعامل المصرى.

٣- لم يألف العمال الأوربيين الجو الحار ويتعرضون للأمراض التى تصيبهم من شدة الحر فتفتك بهم.

٤- امتاز العمال المصريون بقوة الاحتمال والصبر والقدرة على متابعة العمل المضنى فى الجو الصحراوى الحار .

٥- اختلاف عادات العمال المصريين عن عادات العمال الأوربيين ، فنجد الأولين تعودوا على التقشف والقناعة ، بينما نجد فى الآخرين ميلاً إلى الإفراط فى الخمور ونزوعًا إلى الملذات والنسائيات وانكبابًا على لعب الميسر(٣).

أيضًا وصلت إلى الشركة اقتراحات بإرسال عمال صينيين إلى برزخ السويس للقيام بأعمال الحفر . وقد تم تقديم أدلة فى صالح هذا المشروع تمتدح مميزات العمال الصينيين، مثل صلابتهم وأسلوب التغذية التى يسهل إشباعها فى مصر .

ويشمل هذا العرض من خمسة آلاف إلى عشرين ألف عامل يتعاقدون لمدة خمس سنوات . ولكن لم تنل عروض الخدمة «الصينية» رضاء وموافقة الشركة(٤).

أضف إلى ذلك أن توافد عدد ضخم من العمال الأجانب إلى برزخ السويس يسبب صعوبات مادية وسياسية ، بل إن السلطات المصرية خشيت من احتلال أراضيها . ثم أن الحكومة العثمانية خافت أن تساعد قوى أجنبية مصر فى حصولها على الاستقلال ، وأخيراً الخارجية البريطانية التى لن ترضى أن ترى فرنسا توطد علاقاتها ونفوذها بهذه الطريقة فى هذا القطر (٥).

مساعى الشركة لجلب عمال عرب فى البرزخ :

سعت الشركة فى بادئ الأمر لجذب عمال عرب من مصر والشام والحجاز للعمل فى ساحات الحفر، وكونت لجنة مهدت إليها بالطواف فى قرى الوجه البحرى واستمالة العمال المصريين للالتحاق بخدمة الشركة فى البرزخ (٦). وفى ظل التدابير التى اتخذها سعيد باشا نجحت الشركة فى استخدام أفواجًا من سكان بحيرة المنزلة فى حفر القناة البحرية الصغيرة (La Ri-gole De Service) فى منطقة البحيرة . وشكل صيادو بحيرة المنزلة أول مجموعة كبيرة من

عمال الحفر الذين خدموا ورش الشركة . وقاموا طوال عام ١٨٦٠ بحفر مجرى مياه عبر البحيرة . وقد عانى هؤلاء العمال الذين قاموا بعمليات الحفر الأولى وسط هذا المستنقع الأسود الشاسع المكون من الطمى الموحل فقد كانوا ينحنون للأمام ويغرسون الأقدام والأرجل حتى الركب فى المياه ليأخذوا بأيديهم أكوام التراب من القاع بعد أن يقوموا بتقليبها بالفأس ، وتنقل بعد ذلك هذه الأكوام من يد لأخرى حتى الشاطئ . وضاعف من مشقة هذا العمل القائم على أساليب بدائية روائح الهيدروجين المكبرت المنبعثة من الطين المتقلب تحت الشمس المحرقة وبلغ مجموع ما تم استخراجه أربعمائة ألف متر مكعب من الطين بهذه الطريقة (٧).

ويصف أحد الكتاب الإنجليز (A. Wilson) هؤلاء العمال التعساء بقوله :

"To these men , unhonoured and unsung, their posterity owes a debt which it has , perhaps fortunately, not attempted to symbolize by any monuments of marble or perennis" (٨)

«إن هؤلاء الرجال التعساء لم يحظوا من خلفائهم بأى ذكر حتى بتخليدهم بتمثال من رخام»

والفترة من عام ١٨٥٩ حتى ١٨٦٠ شهدت تحركا فاشلا من الشركة لجمع العمال من الشام ومصر ، وقامت بدعاية كاذبة مفادها أن الشركة قد انشأت قرى لسكنى العمال وأنها أقامت مسجداً فى كل موقع وأن ماء الشرب متوفرا وأن الأجور على أساس إنتاجهم وليس على أساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى ساحات الحفر وأن أجر العامل سيتراوح بين ستة قروش وثمانية فى اليوم وأن يترك للعمال حرية شراء ما يروق لهم من مخازن المقاول بالأثمان المحددة فى التسعيرة أو من الباعة المتجولين وأضاف دى لسبس أنه حرم على الرؤساء الأوربيين مهما كانت مناصبهم أو درجاتهم ضرب الفلاحين أو إساءة معاملتهم(٩).

وقد طبع من هذا الإعلان آلاف النسخ وزعت فى المدن والقرى وألصقت نسخ منها على أبواب المساجد ومحطات السكك الحديدية وأقسام البوليس والأسواق والشوارع الآهلة بالسكان. كما علقت منه نسخ فى ساحات الحفر المختلفة (١٠).

كما أن الشيخ رفاعة الطهطاوى كان من المؤيدين لمشروع القناة والداعين له فى مصر بعد أن وطد دى لسبس علاقته معه . وقد نظم قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة وتمت ترجمتهما للفرنسية(١١).

وعلى الرغم من كل الجهود ووسائل الدعاية وتنوعها لجمع أعداد كبيرة من العمال، إلا أنها لم تسفر عن نجاح يذكر، وفشلت جهودها فى حركة جمع العمال العرب وفق الطريقة الحرة.

وهنا بدأت مرحلة جديدة لدى لسبس ، فقد كانت المادة الثانية من عقد الامتياز الثانى (١٨٥٦) هى الركيزة القوية فى تنفيذ المشروع والتى جعل منها دى لسبس أساسًا لنظام السخرة فى حفر قناة السويس ورتب عليها وفرع منها حقوقًا جديدة للشركة صاغتها «لائحة استخدام العمال الوطنيين فى أشغال قناة السويس» استصدرها من صديقة محمد سعيد فى ٢٠ يوليـــو ١٨٥٦ (١٢). وتنفيذا لهذه المادة وتطبيقًا لهذه اللائحة فقد سيق المصريون إلى ساحات الحفر زمراً لشق قناة السويس . فقد كانت قوافل عمال السخرة تسحب سيراً على الأقدام إلى ساحات الحفر فى برزخ السويس وقد ربط بعضهم ببعض كالجمال أو مثل قطعان العبيد فى أفريقيا والتى كان يسوقها تجار الرقيق ومن الأقاليم الداخلية إلى الساحل حيث تكون السفن فى انتظارهم لنقل هذه السلع الآدمية(١٣).

وكان الوالى (سعيد باشا) قد اصدر أوامره لمديرى الأقاليم لحشد عمال السخرة بحيث وصل عددهم فى نهاية ديسمبر ١٨٦١ إلى خمسة عشر ألف رجل، على أن يزداد هذا العدد خلال الشهور التالية إلى خمسة وعشرين ألف مصرى، وذلك بالإضافة إلى جموع أخرى من العمال وعد سعيد بأن يبعث بها من أقاصى الصعيد(١٤).

وقد استخدم دى لسبس كل الضغوط النفسية على صديقه سعيد باشا، تارة بأن التاريخ سيخلده بحفر القناة وأخرى بأن أوروبا ستنظر إليه أنه حاكم مستنير ، وأحيانًا يستعين بالضغوط الدبلوماسية من جانب الحكومة الفرنسية والإمبراطور نابليون الثالث للوصول إلى أهدافه .

وقد أجمعت الدراسات أن الحشد الآدمى فى ساحات الحفر فى برزخ السويس كان لايقل عن عشرين ألف رجل شهريا طوال عام ١٨٦٢ . فالباب العالى أعلن أن عمال السخرة (Forced Labor) فى البرزخ بلغت ستين ألف رجل شهريا ، وهذه العمالة قد استبعدت من مزارعها، وبذلك عطلت إنتاجية البلاد وقد استند الباب العالى فى حساباته لهذا الرقم إلى الآتى :

العاملون فى ساحات الحفر بلغ عددهم ٢٠٠٠٠ عامل وهى الحصة الشهرية التى التزم الخديوى سعيد بتقديمها للشركة، ومثلهم عشرون ألف آخرون فى طريقهم للعودة لديارهم، وعشرون ألف آخرون يشدون رحالهم إلى ساحات الحفر فى البرزخ، فيكون المجموع ستون ألف

رجل . وهكذا أضيرت الزراعة فى مصر من جراء غياب هذا العدد الضخم ضررا بالغا [١٥].

وقد بلغ إجمالى عدد المصريين الذين أكرهوا على الحفر خلال عام ١٨٦٢ (وهى السنة التى شهدت أكبر حشد بشرى فى تاريخ الشركة) ربع مليون مصرى وهو عدد هائل بالنسبة لتعداد مصر فى هذه السنة وهو حوالى ٨ , ٤ مليون نسمة.

وكانت أفواج العمال يتتابع قدومها شهراً بعد شهر مجتازة فى طريقها إلى البرزخ وعودتها منه الوجه القبلى والوجه البحرى . وأشرف موظفو الحكومة المصرية على جمع العمال وإرسالهم ومرافقتهم. وكان يصحبهم أيضا أحد ضباط الشرطة من المديرية التى يقدمها الفوج حتى يتم وصولها إلى الزقازيق ، حيث يتم تسليم الأنفار إلى مندوب شركة القناة هناك[١٦].

وكان سفر عمال الوجه القبلى يتم بالسفن النيلية إلى القاهرة، ومنها بالسكك الحديدية إلى بنها والزقازيق - نهاية الخط الحديدى آنذاك - ومن هناك يساقون زمراً إلى ساحات الحفر فى برزخ السويس، سيراً على الأقدام تحت الحراسة المشددة وكانوا يقطعون المسافة فى أربعة أيام. أما عمال الوجه البحرى فكانوا يسافرون إما بالسكك الحديدية وإما فى السفن النيلية حتى يصلوا إلى الزقازيق ومنها إلى ساحات الحفر سيراً على الأقدام [١٧].

ويقوم مندوبو الشركة - فى الزقازيق - بعملية فرز للعمال، فيستبعدون العمال هزيلى الأجسام ويأخذون الشبان الأقوياء الأصحاء ويوقعون إقراراً بتسلم السخرة ويذكرون فيه عددهم، ثم يرسل الإقرار إلى مدير المديرية التى وفد منها أفراد الفوج. ثم تصدر الأوامر للفوج باستئناف السير إلى ساحات الحفر بالبرزخ سيراً على الأقدام . وكان يسير فى مقدمة الفوج عدد من الجمال تحمل أمتعه العمال وزكائب تحوى مأكلهم وقلل الماء ، ثم يسير العمال فى خط طويل خلف الجمال [١٨].

ويصل عمال السخرة إلى ساحات الحفر منهوكى القوى بعد هذا السفر الطويل الشاق، وهناك تبدأ عملية فرز أخرى بعد عملية الفرز الأولى التى تمت فى الزقازيق . فيقسم رجال الشركة العمال إلى فريقين ، فريق قوى وفريق أقوى. ويعطى كل عامل من الفريق القوى قفة يضع فيها الأنقاض التى تتخلف من عملية الحفر ثم يحملها ليلقى بمحتوياتها بعيداً عن مجرى القناة ، أما عمال الفريق الأقوى فيعطى كل منهم فأسا يضرب به الأرض لحفر القناة، ويهبط فى الأرض إلى أن يبلغ فى حفرها العمق المطلوب. وكان العامل قبل أن يشرع فى عمليات الحفر يقوم بخلع جلبابه ويلقى به جانبا على الأرض، وبجواره قلة الماء يشترك معه

فيها عدد من زملائه . وكان العامل يشتغل فى ظل إكراه المشايخ : وكان «الشيخ» يمسك يده طوال النهار بالكرباج يضرب به كل من يتكاسل عن العمل، وكان العامل يشترك فى عمليات الحفر لمدة شهر واحد يسمح به بعد انتهائه بالعودة إلى قريته . وكانوا يغادرون البرزخ بمجرد انتهاء المدة المفروضة عليهم، وكان الكثيرون منهم يتمنون الفرص للهرب مع إنه لم يمض عليهم بضعة أيام فى ساحات الحفر، وعلى الرغم من الرقابة المشددة عليهم ، وقد ضجت شركة القناة من تعدد حوادث الهرب(١٩).

الوضع المأساوى لعمال السخرة فى ساحات الحفر :

أولاً مشكلة الماء العذب :

تعد هذه المشكلة من أعقد المشاكل التى واجهت الشركة وجيوش عمال السخرة فى صحراء البرزخ القاحلة فالماء ضرورى للحياة، وكانت هناك بعض الآبار التى يستعملها البدو، ولم تكن بالقدر الكافى لتوفير إمداد منتظم لسكان فى ازدياد مستمر . فالآبار التى قامت بحفرها قافلة الدراسات (٢٠)، لاتعطى إلا مياه شديدة الملوحة وغير وفيرة . ولتموين عمال الحفر فى بورسعيد بالمياه قامت الشركة بطلب إلى صناع من امستردام لتصنيع ثلاثة أجهزة لتقطير مياه البحر ، يوفر كل جهاز خمسة آلاف لتر ماء يوميًا (٢١). ولكن ظل إنتاج هذه الأجهزة ضعيفًا بالنسبة لكميات الفحم التى تستهلكها وتكاليفها المرتفعة(٢٢).

وكانت الشركة قد لجأت إلى أحد كبار المصريين المشتغلين بتجارة صيد الأسماك (مصطفى عنانى بك) فى منطقة بحيرة المنزلة، امتلك أعداداً كبيرة من سفن الصيد واتفقت معه على أن يرسل كميات من الماء العذب لاتقل عن ستة أمتار مكعبة فى اليوم ويضعها فى براميل تقدمها له الشركة وينقلها فى قواربه لترسو بها تجاه الفنار المقام فى ميناء بورسعيد ، وذلك مقابل ستة فرنكات للمتر المكعب من الماء. وكان هذا الاتفاق فى مصلحة الشركة، إذ كان المتر المكعب من الماء الذى تنتجه المكثفات يكلف الشركة عشرين فرنكًا ولم يستمر هذا الاتفاق طويلاً فقد اعتمدت الشركة على وسائلها الخاصة فى جلب ماء الشرب عبر بحيرة المنزلة(٢٣).

ثم بعد ذلك تم التعاقد مع محمد الجيار فى يونيو ١٨٦١ (مالك قوارب مشهور فى بحيرة المنزلة) تعهد بتوصيل المياه إلى معسكر العمل على بحيرة الشاطئ، ويتم تخزين المياه بمجرد أن تصل بالقارب من دمياط ، واتضح أن تزويد المياه عن طريق القوارب هى الوسيلة الأقل

تكلفة بعد أن تم توفير كميات المياه الضرورية وكانت احتياجات الاستهلاك تتراوح بين ١٦ ألف إلى ١٧ ألف لتر يوميًا . ومع الوقت استمر انخفاض السعر الذى طلبه الجيار من ١٦ فرنك إلى عشرة فرنكات للمتر مكعب فى عام ١٨٦٢، ثم إلى ٥,٥ فرنك فى عام ١٨٦٤ . وكان كل زورق يحمل خزانين من الصفيح قدمتهما الشركة ، سعة كل منهما متر مكعب(٢٤).

وكان يتم توزيع المياه لأماكن إقامة العمال بواسطة السقايين ويدفع الخاصة ١٢,٧٥فرنكا للمتر المكعب ، أما ساحات الحفر فى البرزخ فيتم تزويدها بالمياه بواسطة الجمال وعند وصول المياه إلى المخيم تنقل فى براميل وتفرغ فى صناديق من الصفيح أعدت لهذا الغرض(٢٥).

استمر الاتفاق نافذا مع محمد الجيار حتى فرغت الشركة من مد خط أنابيب الماء من الإسماعيلية إلى بورسعيد فى أبريل ١٨٦٤ (٢٦). وأيضًا كانت المياه تصل من الإسكندرية إلى بورسعيد بالسفن ولكن غالبا ما تحول حالة البحر دون رسو السفن على الشاطئ.

وكانت مشكلة إمدادات المياه العذبة لعمال السخرة بعد تزايد أعدادهم فى ساحات الحفر عقبة أمام الشركة بعد أن مات العديد من العمال عطشًا فى ساحات الحفر لنقص المياه، وكانت الشركة قد أخطأت فى تقدير وتقييم احتياجات العمال من الماء وقت أن دفعتهم لساحات الحفر فى البرزخ وخاصة فى منطقة الجسر خلال عام ١٨٦٢ (٢٧). وكان الموقف مروعًا فى أعماق صحراء البرزخ فى القنطرة والفردان ومرتفعات عتبة الجسر حتى بحيرة التمساح، وأخذت الشركة تنقل الماء إلى العمال فى ساحات الحفر من بعض آبار متناثرة فى الصحراء فى أبوصير (غرب عتبة الجسر) وفى نفيشة وفى أبوشنان (جنوبى القنطرة) . وكان هذا الأسلوب الذى سارت عليه الشركة فى جلب ماء الشرب إلى ساحات الحفر بدائيًا باعتراف أشد الكتاب الفرنسيين مناصرة لدى لسبس (فونتان ماريوس)(٢٨) وكانت قافلة الجمال- التى تنقل المياه- تستغرق أربعة أيام فى ذهابها إلى مورد الماء فى القنطرة والعودة منه (٢٩). وإذا تأخر وصول القافلة كان الموت يحصد العمال حصداً (٣٠).

وكان عمال السخرة «يعاملون بمنتهى القسوة ويموتون كالذباب » وذلك على حد وصف ألبرت فارمان (قنصل عام الولايات المتحدة فى ذلك الوقت)(٣١) أما كاتب آخر (Dicey) فيقول : «أنهم كانوا يموتون كالماشية »(٣٢) وكان العمال يلوذون بالفرار من ساحات الحفر حين يشعرون بالخطر الداهم بسبب نفاد كميات المياه وتأخر وصول مقادير أخرى منها فيهربون قبل أن يدركهم الموت ، إلا أنهم كانوا يلقون حتفهم فى الطريق وهم يعبرون الصحراء التى تفصل

بين ساحات الحفر وبين الأماكن المأهولة بالسكان والتى توجد بها مياه الشرب وتظل جثثهم فى العراء على رمال الصحراء تنهشها الذئاب .

وكان هناك قلة من العمال يستسلمون لقضاء الله وقدره، ولايبرحون ساحات الحفر يحدوهم الأمل فى وصول القافلة التى تحمل ماء الشرب، وكان يطول انتظارهم ويلفظون أنفاسهم قبل أن تدركهم قافلة الجمال (٣٣).

وظل العمال يعانون من قلة الماء إلى أن دل أحد روساء الأعراب رجال الشركة (فى أغسطس ١٨٦١) إلى موقع بئر بالقرب منهم هو بئر (أبوشنان) تصلح مياهه لشرب الإنسان، فوجهت الشركة قوافل الجمال شطره تنقل مياهه للعمال (٣٤).

واعترف دى لسبس أن شغله الشاغل كان إعداد الوسائل اللازمة لتموين العمال وسط الصحراء وعلى الأخص إمدادهم بماء الشرب قبل كل شئ ، وقد ذهب إلى أن مشكلة حفر قناة السويس إنما هى فى توفير ماء الشرب فى ساحات الحفر. وحاول دى لسبس الدفاع عن الشركة التى هى المسئول الأول عن الخسائر الجسيمة فى الأرواح(٣٥).

ولقد كانت الشركة مسؤلة حسب عقد الامتياز الثانى (يناير ١٨٥٦) عن حفر ترعة للماء العذب تستخدم فى الرى والملاحة النهرية ، تخرج من النيل إلى بحيرة التمساح ، وهناك تتفرع إلى فرعين أحدهما يتجه شمالاً إلى بورسعيد والآخر جنوبا حتى السويس. ولكن الشركة أجلت حفر هذه الترعة واهتمت بحفر القناة البحرية ، وهنا جاءت مأساة هذه الآلاف المؤلفة من المصريين المسخرين فى ساحات الحفر ، وبرزت مشكلة إمدادهم بالمياه.

وحلاً لهذه المشكلة قامت الحكومة المصرية بأمر من سعيد باشا بحفر ترعه الماء العذب ، هذه على نفقتها وبأعداد بلغت ٥٥٨٩٣ رجلاً من المصريين وتم حفرها خلال تسعة أشهر من قرية القصاصين إلى نفيشة بالقرب من بحيرة التمساح فى ٢٣ يناير ١٨٦٢ وبلغ طولها ٣٤٨٣٨ مترا وهنا خفت مشكلة ماء الشرب فى ساحات الحفر(٣٦).

ثانيًا : تفشى الأوبئة والأمراض بين العمال فى ساحات الحفر:

الكارثة الأخرى التى حلت بعمال السخرة تمثلت فى الأوبئة التى اجتاحت ساحات الحفر نتيجة لانعدام الماء العذب فى البرزخ إلا من بعد آبار قليلة- كما سبقت الإشارة- فلم يكن فى الاستطاعة إقامة الحمامات العامة أو المغاسل وغير ذلك من وسائل المحافظة على الصحة

العامة . فقد كان الماء لازال يحمل على ظهور الجمال لساحات الحفر، ولم يكن يفى بحاجات العمال الضرورية .

كل ما هناك أن الشركة انشأت إدارة صحية تتبعها مراكز الإسعاف متنقلة مصنوعة من الخشب تتبع ساحات الحفر [٣٧]. ولكن الدكتور أوبار روش Aubert Roche رئيس الشئون الصحية فى الشركة[٣٨] أمر بإلغاء المخيمات وأكواخ الخشب وإقامة المنازل المبنية من الطوب اللبن، كما نصح بالاهتمام بالتهوية فى كل مكان وتجنب التكدس والازدحام وأوصى بتنظيف أرض المنازل وطلاء الحوائط باللون الأبيض وتنظيف الشوارع [٣٩].

وكانت أهمية مراكز الإسعاف تتوقف على عدد العمال الذين يعملون فى دائرتها أو على جنسية المقيمين هناك. فكانت عناية الشركة بصحة مستخدميها وعمالها الأجانب تفوق بكثير عنايتها بصحة العمال المصريين [٤٠].

واتبع «أوبار روش» طوال فترة حفر القناة سياسة «الوقاية الصحية» والسلامة من الأمراض وأقام مستشفى فى بورسعيد عام ١٨٦٠ لعلاج العاملين بالشركة ومع ازدياد عدد العاملين فى ساحات الحفر والمقاولين وأتباعم تم إقامة مستشفى آخر فى الإسماعيلية فى منتصف البرزخ [٤١].

وكانت أكثر الأمراض انتشارا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر هى : النزلات الشعبية والأمراض الصدرية والرمدية ، وحالات الإسهال الشديد والدوسنتاريا وأمراض الكبد[٤٢].

والحقيقة أن النشرة الصحية التى كان يقدمها أوبار روش كل حين قد جانبها الكثير من الصواب لمحاولتها إخفاء الحقائق المؤلمة حول عدد الموتى الذين عصفت بهم الأوبئة فى ساحات الحفر . والأوبئة التى اجتاحت برزخ السويس حسب ترتيب ظهورها هى : التيفود - التيتنوس - الجدرى - الكوليرا- الحمى الراجعة .

التيفود : ظهر فى إبريل ١٨٦٢ فى ساحة الحفر رقم ٦ واتخذ مظهر الوباء بين العمال من النوبة وتبت مسئولية الشركة وتقصيرها ، فكان حرى بها أن تتخذ التدابير الوقائية لمنع تسرب المرض إلى ساحات الحفر، علاوة على أن العمال قد حملوا العدوى لقراهم بعد عودتهم[٤٣]. ويذكر المؤرخ الايطالى «انجلو ساماركو» أن الشركة كانت سببًا فى ذلك[٤٤] .

كافحت الشركة الوباء فى تكتم شديد، فلم يذكر أحد من رجال الشركة على الإطلاق اسم ذلك المرض حتى لايثير الرعب والاضطراب فى ساحات الحفر، حتى أن المرضى أنفسهم كانوا يجهلون أنهم مصابون بهذا المرض[٤٥].

وتذكر الشركة أنها تغلبت على الوباء خلال شهر واحد ، وأن عدد الإصابات بلغت ٥١٢ عاملا والوفيات ٢١ فقط !! ولكن هذه الأرقام كانت دون الحقيقة بكثير فى ساحات الحفر التى لايقل عدد العمال فيها عن عشرين ألف عامل . وتعطلت عمليات الحفر بسبب الوفيات، وهذا دليل على جسامة عدد الضحايا . كما أن مدير عام الأشغال بالشركة- فوازان بك- Voisin béy الذى كان يشرف على عمليات الحفر فى تلك المنطقة وصف ذلك الوباء بأنه «حادث خطير»[٤٦].

وفى العام التالى (١٨٦٣) انتشر وباء التيفوس والتيفود معًا فى ساحات الحفر، وكانت مصر قد ابتليت بهذين الوبائين قبل انتقالهما إلى منطقة البرزخ، وكان من المتعذر أن يظل برزخ السويس بمنجاة منهما .

وفى عام ١٨٦٤ تسرب وباء الجدرى إلى ساحات الحفر، وهنا أيضا يتأكد تقصير القسم الطبى بالشركة فى اتخاذ التدابير الوقائية لمنع تسرب الأمراض والأوبئة إلى برزخ السويس[٤٧].

الكوليرا : تفشى وباء الكوليرا فى ساحات الحفر فى صيف عام ١٨٦٥ وكان أخطر وأشد وباء شهدته منطقة برزخ السويس ، ونشر الذعر بين الناس مما أدى إلى تعطيل الأعمال [٤٨].

وقد ظهر هذا الوباء أولاً فى عام ١٨٦٤ فى البنغال بالهند ثم انتقل إلى بمباى ، وفى سنه ١٨٦٥ انتشر على ساحل ملبار إلى كراتشى وبلوخستان ثم نقلة الحجاج الهنود المسلمون إلى الحجاز (مكة) وانتشرت العدوى بين الحجاج المصريين هناك، فلما عاد حجاج مصر وشمال أفريقيا إلى ميناء السويس وفد الوباء معهم إلى ذلك الثغر ومن ثم انتشر فى مصر وفى ساحات الحفر ببرزخ السويس[٤٩]. وقد أثار الذعر بين السكان والعمال العرب والأجانب على السواء وخرج الأجانب هائمين على وجوههم صوب بورسعيد يقطعون المسافة سيراً على الأقدام ويحملون معهم أثقالا من المتاع . ومع ازدياد أعداد الموتى زيادة مروعة اعتقد الجميع أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من الوباء هى مغادرة المدينة بأسرع ما يمكن، وعجزت الإدارة الصحية للشركة عن الحصول على رجال ينقلون المرضى إلى مراكز الاسعاف أو يرفعون جثث الموتى[٥٠].

ومن العجيب أن يظل عدد الإصابات بالكوليرا بين العمال المصريين فى ساحات الحفر أمراً غامضًا لم تشر إليه تقارير الإدارة الصحية فى شركة القناة إلا لاما، وقصرت الشركة

إحصائياتها على العمال الأجانب . وقد ذكر كبير أطباء الشركة (أوبار روش) فى تقريره عن «سير الكوليرا» وكذلك مدير الأشغال (فوازان بك) أنه كان من الصعب للغاية الوقوف على عدد الوفيات والإصابات بين العمال المصريين، وهو أمر أريد به إخفاء نسبة الوفيات العالية بينهم[٥١].

ثالثًا : سوء التغذية وانعدام الأجور وسوء المعاملة :

أوردت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» تقريراً عن حالة عمال السخرة فى البرزخ خلال الفترة الأولى قبل إلغاء السخرة فى عام ١٨٦٤ جاء فيه :

«أما الظروف التى كان يعيش فيها رجال الورشة فلم تتحسن تمام ويبدو أن الوضع كان أكثر صعوبة فى وسط الخليج والصورة التى رسمها المهندس مانتو Montaut[٥٢] تعطى فكرة عن ذلك، فقد كان تموين علف الماشية من التبن والفول والشعير أيضًا غير منتظم وكان عدد الوفيات ضخمًا بسبب المجاعة ، ولم تكن تدفع الأجور وهناك نقص فى المؤن- نقص فى الأوعية والملابس والأحذية الملائمة لطبيعة المكان ، ولم تصل ملابس صيفية طوال الصيف ، كما كان يوجد داخل البرزخ معتقل يرسل إليه من يسئ السلوك، وليس على المرء ان يشكو ما لم يمت جوعا ... إن المواد الغذائية الموجودة فى مخزن دمياط لاتصل »[٥٣].

وقد كشف أيضًا مانتو- بعد استقالته- كيف كانت النوايا السيئة للمقاول العام «هاردون» واضحة فقد جاء إلى مصر بعمال أوربيين مع أسرهم ووعدهم بشروط مميزة ثم دفع لهم أجور أقل بكثير مما صرح به، وكانوا يتقاضون ما يكفى لأكلهم ، وكيف جاء بحرفيين سرحهم عندما تتوافر المواد اللازمة لعملهم وظهرت تعسفات وتجاوزات المقاول العام أكثر تجاه العمال العرب. وتكشف بوضوح الهوة بين الحقوق المكتسبة التى أعلنت على الملأ بواسطة الدعاية الضخمة وبين التصرفات الفعلية[٥٤]. وإن كان الخديوى سعيد قد احترم تعهداته واستدعى الآلاف من الفلاحين من قرى مصر وأرسلهم إلى ساحات الحفر فى البرزخ- كما ذكرنا- فعلى العكس من ذلك لم يكن وكيل الأعمال ينفذ تعهداته . ولاحظ مانتو ضعف الأجور التى تدفع للفلاحين ، إذ كانت أقل بكثير عما أعلن عنه، ورأى أيضا أن مراقب المقاول فى موقع الحفر فى منطقة البلاح استخدم فلاحين فى أراضى وعرة بالإضافة إلى عدم استطاعته تزويدهم بالمعدات المناسبة وقرر أن يدفع ٤٠ سنتيما عن كل متر مكعب تم استخراجه أكثر قليلا عن الأجر المعتاد ، فوجه المقاول العام له اللوم على مبادرته ، كما أن

العمال كانوا ينتظرون أجورهم طوال أسابيع كاملة، وكانوا يضطرون للعودة إلى قراهم دون مال(٥٥).

وهذا ما أكده أيضا (البرت فارمان) بقوله : «بناء على بعض المعلومات التى حصلت عليها من بعض المطلعين على الحقائق ، أن المبالغ الضئيلة التى اتفق على دفعها للعمال لم تكن تدفع لهم فى أغلب الأحيان . ولقد اتضح من القضايا التى رفعت بعد ذلك أن حوالى مليون دولار (٤.٥ مليون فرنك) من المبالغ الصغيرة المستحقة لهؤلاء الناس الذين كان من بينهم نسبة كبيرة من الأطفال ، لم تدفع لأى شخص منهم. والأدهى من ذلك أنها لم تدفع على الإطلاق ، بل حجزت نظير الفائدة المستحقة على التعويضات الناجمة عن عدم الاستمرار فى توريد عمال السخرة»(٥٦).

وتجدر الاشارة إلى أن عمال السخرة كانوا يعملون فى شهر رمضان ، وقد بلغ عددهم فى شهر رمضان عام ١٢٧٨هـ (مارس ١٨٦٢م) ١٩٦٧٨ عاملا سيقوا إلى ساحات الحفر وعمل الكثير منهم فى حفر القناة أثناء الليل، وكانت الشركة قد اتخذت عدتها لهذا التجديد فى نظام العمل، فابتاعت ألف مشعل من القاهرة استخدمتها فى إنارة ساحات الحفر حيث ظل العمال يعملون على ضوء المشاعل طوال شهر رمضان (٥٧).

العمالة الأجنبية فى البرزخ وتبعاتها :

بعد إلغاء أعمال السخرة فى ١٥ مارس ١٨٦٤ استلزم الأمر كثرة من العمال الفنيين وعمال الحفر على السواء. وكان العمال الفنيون ، الذين يعملون على الكراكات والمعدات الميكانيكية وغيرها، من الأجانب أما عمال الحفر فكانوا فى غالبتهم العظمى من العرب(٥٨) جاءوا للعمل بمحض إرادتهم(٥٩) وخاصة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٥) وإنخفاض أسعار القطن المصرى انخفاضا كبيراً . ويؤكد ذلك تقرير محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) أن عمال الفحت فى رمال القناة أكثر الشغالة فيها من أبناء العرب، أما الأروام وغيرهم من الأجانب فهم قله بالنسبة للأول (٦٠).

وعلى أية حال فقد شهدت مصر عهد التسلط القنصلى، إذ كانت الغالبية العظمى من قناصل الدول يتدخلون فى صميم الشئون الداخلية للحكومة المصرية، وازداد تدفق الأجانب على مصر منذ تولى سعيد حكم مصر، جاءوا بحثًا عن المأوى والمطعم ، تحت حماية قناصل دولهم وأصبحت مصر مقصد كل عاطل وحالم كأنها أصبحت «كاليفورنيا جديدة» تزخر بمناجم

الذهب، وكان معظم هؤلاء الأجانب قد جاءوا من جنوبى شبه الجزيرة الايطالية ومن اليونان وفرنسا والنمسا . وكان الأجانب ـآنذاك- لايخضعون للقضاء الإقليمى فى مصر ، ولايخضعون للتشريع المصرى ولايخضعون للسلطة التنفيذية المحلية ، ونتيجة لذلك أصبحت شركة القناة بأراضيها قد تحولت إلى مستعمرات فرنسية تحظى بحماية ورعاية فرنسا كأنها «حكومة داخل الحكومة المصرية» (Imperium in Imperio) [٦١].

وهكذا وفد إلى مصر جموع متباينة من العمال الأجانب- بعد إلغاء السخرة- فاضطرب حبل الأمن وكثرت حوادث القتل والسطو وتعددت حوادث الاعتداء على رجال الشرطة ومهاجمة مراكز قواته وغير ذلك من الشرور الاجتماعية . وكان العمال الأجانب فى برزخ السويس على قدر كبير من التنافر فى الأخلاق والعادات والتقاليد والأمزجة واللغة ، فكان حتمًا وقوع الاحتكاك والاضطراب وكثيراً منهم كانوا من المتعطلين فجاءوا إلى مصر التماسا للرزق فى عمليات حفر القناة [٦٢]. وقد وصف محافظ الاسكندرية- آنذاك- العمال الايطاليين الذين وفدوا إلى مصر فى أكتوبر ١٨٦٥ بأنهم من سفلة الناس [٦٣].

أكدت الوثائق المحفوظة بشركة قناة السويس والمتعلقة بالأمن إلى وجود اضطرابات كثيرة فى ساحات الحفر ببرزخ السويس فى أعقاب تدفق العمالة الأجنبية هناك . وقد أكدت الباحثة الفرنسية «نتالى مونتل» أنه بالرغم من التصريحات العامة المتعارضة للشركة، فإنه يكاد يظهر العنف يوميًا فى البرزخ ، إذ تعكر المشاجرات والصراعات العنيفة التى تنفجر غالبًا لأسباب تافهة ، هدوء الورش والمخيمات ، بشكل دائم وتزيد من العداوة بين أفراد من جنسيات مختلفة . وبعد توقف إرسال قوافل عمال السخرة قام فى الحقيقة خليط من الجنسيات المتعددة من العمال بالعمل فى ساحات الحفر فى القطاع الجنوبى من برزخ السويس، بينما كان معظم عمال الحفر من المصريين أو السوريين. أما العمال الحرفيون من بنائين ونجارين وحدادين وميكانيكية فقد تم اختيارهم من إيطاليا وشمال بحر الادرياتيك وشكل اليونانيين طاقم ملاحى الجرافات والزوارق المتنوعة [٦٤].

وهكذا انقضى عهد الهدوء والأمن الذى نعمت به منطقة البرزخ عندما كانت تعج بعشرين ألف عامل مصرى من عمال السخرة ، فلقد عرف عن أولئك العمال الوداعة والطاعة والانصراف إلى العمل فى هدوء ، مما سهل على الحكومة حفظ الأمن فى ساحات الحفر . وقد اعترف المسئولون فى شركة القناة والكتاب الفرنسيون أنفسهم بهذه الخصال الحميدة التى امتاز بها العمال المصريون [٦٥].

يقول رئيس ساحة الحفر فى منطقة سرابيوم أن العمال اليونانيين كانوا بمثابة الطاعون الحقيقى الذى يجتاح البرزخ، فكانوا يرتكبون حوادث النشل والسرقات والاعتداء. وكان إذا قبض على هؤلاء اليونانيين وثبت عليهم الجريمة أرسلوا إلى القنصلية اليونانية فى الإسكندرية لتقوم بأبعادهم إلى بلادهم ، وهناك لايتورعون عن تغيير أسمائهم وسرعان ما يعودون إلى البرزخ لاستئناف نشاطهم . وقد خاطب دى لسبس العمال بقوله : «كل إنسان حر فى البرزخ، ولكن على الذين لايريدون عملاً أن يرحلوا وهذه أجل خدمة يستطيعون إسدائها لنا »[٦٦].

كذلك أدت مشاجرة نشبت بين اليونانيين والعرب فى يومى ٣٠ و ٣١ أكتوبر ١٨٦٤ إلى إصابة اثنى عشر عاملاً يونانيًا بجروح خطيرة وتم نقلهم إلى مستشفى الإسماعيلية [٦٧]. أيضا اندلعت معركة حامية بين اليونانيين والزنوج (يقصد النوبيين) فى نوفمبر ١٨٦٥ فى ورشة التل الكبير ونتج عنها ستة جرحى من بينهم مشرف فرنسى. أما المعركة التى وقعت بين العرب ورجال من الجبل الأسود فى ورشة القنطرة فى أبريل ١٨٦٦ فكانت نتيجتها ثلاثة قتلى. وفى عام ١٨٦٤ اندلعت أحد أكبر المشاجرات ضراوة فى ورشة بقسم الاسماعيلية وتدخل المستخدمون بالشركة لمنع مجزرة حقيقية وأدى هذا الصراع بين ثلاثين يونانيا وخمسمائة عربى إلى خمسة قتلى وعشرين جريحًا [٦٨].

ونتيجة لهذه الحوادث المتكررة أدخلت الحكومة المصرية فى البوليس المصرى بعض الأجانب المشهود لهم بالذكاء ، كشفوا عن الحيل التى كان يلجأ إليها الأجانب المشاغبون وقاموا بترحيلهم إلى بلادهم وأدرك اليونانيون أن ارتكاب الجرائم حرفة غير مجزية فاختفوا من ساحات الحفر، ولم يبق فيها من الجالية اليونانية إلا العمال الأمناء والتجار الشرفاء[٦٩].

وتنقسم الحوادث التى وقعت فى ساحات الحفر من حيث عدد المشتركين فيها إلى نوعين:

الأول : حوادث جماعية تقع بين جموع العمال ويتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف ويكون للتعصب الجنسى الأثر الأكبر فى تفاقم الحال، إذ سرعان ما ينقسم المشتركون فيها إلى فريقين ينتمى كل فريق إلى جنسية واحدة، أو ينقسم المشتركون إلى فريق من العمال المصريين وفريق من العمال الأجانب على اختلاف جنسياتهم ، ممن يتصادف وجودهم فى منطقة الحادث ، وتسفر عن وقوع قتلى وجرحى من الفريقين .

الثانى : حوادث فردية تقع بين عامل مصرى وآخر أجنبى ، أو بين عامل أجنبى وآخر أجنبى [٧٠]، ووثائق شركة قناة السويس (الفرنسية) وأيضًا وثائق محفوظات عابدين (المصرية) تفيض بأخبار هذه الحوادث بنوعيها .

وسنذكر هنا بعض الأمثلة لهذه الحوادث ، اصطدام بين العمال الفرنسيين والعمال اليونانيين، نشأ من أن بعضًا من العمال الفرنسيين دخلوا بعد منتصف الليل محل بقاله يونانى يريدون شراء الخمر ، ولما كانوا فى حالة سكر شديد امتنع البقال اليونانى عن إعطائهم الخمر فثارت ثائرتهم وشرعوا يحطمون المحل وما فيه من زجاجات الخمر وعلا ضجيجهم وعندئذ انضم إلى صاحب المحل بنو جنسه من اليونانيين، كما انحاز الفرنسيون إلى العمال السكارى ، وهكذا اتسع نطاق الحادث. ويذكر محافظ القناة- إسماعيل حمدى بك- فى تقريره عن هذا الاشتباك : «وإنما تمكنت من إسكات الفتنة بعد جهد كبير وعناء شديد نظراً لأن عدد المتشاجرين كان يربو على خمسمائة شخص» (٧١). وأسفر الحادث عن وقوع إصابات بين الفريقين .

حادثة أخرى تتمثل فى أن جماعة من العمال الايطاليين الذين كانوا يعملون فى مركز الشلوفة أرادوا ابتياع كميات من الخمور يحتسونها وقت القيلولة فى أحد أيام ديسمبر ١٨٦٥ فوجدوا أن الموسسة الاقتصادية الفرنسية Bazin مغلقة فى تلك الفترة من النهار، ولم يرق للايطاليين ذلك فحطوا باب المحل واقتحموه ، وقد طلب رئيس ساحة الحفر فى قسم الشلوفة وهو رجل فرنسى من قوات البوليس المرابطة فى تلك الناحية القبض على اثنين من متزعمى هذه الحركة فما أن ألقى القبض عليهما ، حتى ثار العمال الأجانب وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف، فهجموا على مركز البوليس بعد أن حبطت محاولة قاموا بها لحرق رجال البوليس أحياء، كما حطموا مخزن الشركة فأرسلت على عجل من السويس قوات من البوليس المشاة والفرسان وصلت بعد منتصف الليل ولم تهدأ الحال إلا فى الساعة الخامسة صباحًا وبعد أن وقعت إصابات بين أفراد البوليس والعمال (٧٢).

أيضا كان العمال الأجانب يجنحون دائمًا إلى الإضراب إذا تأخر المقاولون عن دفع أجورهم. وقد وقع هجوم منهم على مركز الشركة فى السلوفة، لأن المقاول أراد أن يستقطع من كل عامل ١١ فرنكا بمثابة تأمين عن السرير الذى تم صرفه لكل منهم، ورفض العمال الإذعان لرغبة المقاول، وكان عددهم يزيد على ألفين ، فلجأوا إلى أعمال الشغب ووقعت خسائر فى الأكواخ الخشبية والأسرة المعدة لنومهم ، وأبلغ أمر هذا النزاع إلى قناصل الدول، فحضر قنصلا فرنسا والنمسا إلى مكان الحادث وفصلا فى النزاع لمصلحة العمال(٧٣).

ولما أدرك العمال الأجانب أنهم قد نجحوا فى فرض إرادتهم على المقاولين والشركة ، طالبوا فى اليوم التالى بزيادة أجورهم واتفقوا على الإضراب عن العمل إذا لم تجب مطالبهم وحددوا

لإجابته أربع وعشرين ساعة ، فلما انقضى الموعد وشرعوا فى الإضراب طلبوا من العمال المصريين مشاركتهم فى الإضراب فأبى المصريون ووقع صدام بينهم وأطلق العمال الأجانب الأعيرة النارية ، ولجأ العمال المصريون إلى استخدام الفؤوس يضربونهم بها واتسع نطاق المعركة ووقع فيها عدد كبير من القتلى والجرحى، كما أصيب مأمور الشلوفة (٧٤). وقد استنجد البوليس هناك بقوات إضافية حضرت على عجل من السويس والإسماعيلية وإقليم الوادى وكانت هذه القوات من المشاة والفرسان . كما قامت من القاهرة فى قطار خاص كتيبة من الجيش المصرى بقيادة السردار راتب باشا وعسكرت فى السويس ووزع بعض أفرادها فى الشلوفة وغيرها من مراكز الحفر الواقعة شمالى السويس على أهبة التدخل .

وقد خف إلى مكان الحادث رجال الداخلية ووكيل قنصل النمسا ووكيل قنصل ايطاليا لتهدئة الحال، وهناك علموا أن العمال الأجانب فريقان : فريق يرى المضى فى سياسة الإضراب حتى تجاب مطالبهم ، وفريق يريد العودة للعمل، ولكنه يخشى سطوة الفريق الأول . وقد استقر الرأى على إنذار أفراد الفريق الأول بضرورة العودة للعمل فورا وإلا أعيدوا إلى بلادهم بواسطة قناصل دولهم. وألقت السلطات المصرية القبض على اثنين من رجال الجبل الأسود وثلاثة عمال نمساويين كطلب سلطات الشركة والمقاولين وموافقة قنصل النمسا وأرسلوا إلى السويس تحت حراسة مشددة تمهيداً لترحيلهم إلى بلادهم(٧٥).

أما الحوادث الفردية فكانت ترجع إلى سوء سلوك العمال الأجانب وإلى سوء الحالة المالية وخاصة بعد أن تعطل عدد كبير منهم عن العمل وأصبحوا ينتقلون من ساحة حفر لأخرى بقصد البحث عن أشغال يتعيشون منها(٧٦).

وساعد على كثرة هذه الحوادث أن الأسلحة النارية كانت تتداولها أيدى العمال الأجانب الذين كانوا يستعملونها لأوهى الأسباب . ومن أسباب زيادة عدد الجرائم الفردية فى منطقة البرزخ الإفراط فى تناول الخمور، مما كان موضع شكايات عديدة استفاضت بها تقارير أوبار روش (Aubert Roche) كبير أطباء شركة القناة (٧٧). كما أشار إليها محافظ القناة فى برقياته إلى المعية السنية(٧٨).

الخمارات ونوادى القمار :

نتيجة للحوادث الناجمة عن تعاطى الخمور، تم حظر بيعها ، ورغم ذلك ومع تطور التجارة استمر استهلاك شراب الأفسنتين (الأبسنت) وماء الحياة بصورة كبيرة، تثير الثمالة

والصراعات وتولد العنف . ففى مارس ١٨٦٨ حدثت مشاجرة أمام محل بيع مشروبات بالقرب من البحيرات المرة نتج عنها أن تلقى إيطالى رصاصة فى ظهره وطعنة سكين بجانب عينه اليسرى دخل على أثرها المستشفى[٧٩]. وقد افتتح بعض الأجانب محلات عامة فى بعض جهات البرزخ للعب القمار وانتشرت لعبة الروليت (Roulette) فى أوساط العمال الأجانب وكان اليونانيون بوجه خاص هم الذين يديرون تلك المحلات[٨٠].

أيضا حصل المسيو شكتران (السويسرى) فى إبريل ١٨٧٤ على ترخيص بانشاء فابريقة لعمل البيرة بالإسماعيلية ، مع إعفاء الآلات والعدد الخاصة بتلك الفابريقة من الرسوم الجمركية لمدة سنة[٨١].

وكان العمال الأجانب يدخلون محلات القمار بعد أن يتسلموا أجورهم فيخسروا فى ساعة أو بعض ساعة الكسب الذى أصابوه من عملهم[٨٢] وقد أزعج هذا الأمر كلاً من Voisin Bey (مدير الأشغال بالشركة) ودى لسبس ، فاتخذوا موقفا حازما من هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة ، إذ طلبا من محافظ القناة رسميا إغلاق دور القمار فى منطقة البرزخ، وقد تظلم أصحاب هذه المحلات إلى قناصل دولهم من تصرف البوليس المصرى، وكان منع القمار فى موضوع مكاتبات رسمية بين نظارتى الخارجية والداخلية وقصر عابدين[٨٣].

وبلغ من إقبال العمال الأجانب على تناول الخمور أن كانت هناك حانات متنقلة تتبع كل منها مجموعة من الكراكات فى سيرها فى القناة[٨٤]. وكانت إذا حلت مجموعة من الكراكات فى إحدى جهات البرزخ الآهلة بالسكان وألقت مراسيها فى القناة، انتشر الخبر بسرعة بين سكان تلك الجهة فهرع التجار إليها يقيمون الأكواخ الخشبية ويعلقون اللافتات ويعرضون البضائع وتفتح المقاهى على مقربة منها ، وسرعان ما يدب النشاط والحياة فى الجهة بأسرها. وكانت مجموعة الكراكات تتألف فى العادة من خمس وحدات[٨٥].

عنصر النساء فى البرزخ :

كانت شركة المقاولات (Borel & Lavalley) التى أبزمت معها شركة القناة عدة اتفاقيات لحفر الجزء الأكبر من القناة بالوسائل الميكانيكية تعمل على جلب النساء إلى منطقة البرزخ وكثير منهن كن ساقطات كى يقمن بالرقص فى بعض المقاهى والحانات ترويحًا عن العمال. وقد احتج محافظ القناة (إسماعيل حمدى بك) لدى فوازان بك (مدير عام الأشغال فى شركة القناة) ولدى بوريل Borel على هذا التصرف ، إذا كان يتأتى من ذلك أمور مغايرة وحصول مشاحرات ، وأن الأصول لاتجيز ذلك». وكان رأى الشركة أن رقص النساء فى المحال العامة

إنما هو عنصر هام من عناصر الحياة الاجتماعية يستهوى العمال على الإقامة فى منطقة البرزخ ويروح عن نفوسهم متاعب العمل ، ولم يسفر احتجاج المحافظ عن نتيجة إيجابية ، إذ رأى أن رجال الشركة يعتزمون إجراء بعض أمور توجب وقوع مفاسد فى المستقبل بشأن هذا القبيل. وكتب تقريرا بذلك إلى رجال المعية السنية وطلب إليهم رفعه إلى الخديوى إسماعيل إذا رأوا أنه ليس هناك ما يحول دون عرض «مادة النساء الفواحش على سموه»(٨٦).

والحقيقة أن وجود هذه النوعية من النساء فى البرزخ كانت سببًا فى قيام الخلافات والصراعات . وتشير الإحصائيات الطبية لعام ١٨٦٨- ١٨٦٩ إلى أن هناك ألفى امرأة من البيض ونفس العدد من أهالى البلد أى ما يساوى ١٢٪ من جملة السكان(٨٧).

وقد تم اغتيال نمساوى فى ١٤ أغسطس ١٨٦٧ فى مقهى إيطالى بالحى الصناعى بالإسماعيلية وقد توصل المحقق إلى أن «المرأة» هى دافع الجريمة وبالرغم من أن المرأة موضوع الخلاف إلا أنها أحيانا ما تكون الضحية . وفى ١٢ أكتوبر ١٨٦٨ أوضح تقرير رسمى أن عاهرة نمساوية عمرها يقل عن ٢٥ سنة قتلت فى بيت بغاء فى بورسعيد (٨٨).

وشملت شكاوى غاية فى الحدة وأشير إلى أن عدة منازل فى القرى العربية بالقرب من المخيمات الأوربية فى منطقة الجسر، يوجد فيها ناد للقمار وبيت للدعارة ، يتردد عليها عدد كبير من الأوربيين العاملين فى المخيم لقضاء الليل ومن جراء ذلك انتشرت الأمراض التناسلية بشكل مفجع بين السكان وكان لابد من وضع قوانين لذلك وإصدار قرارات من الأمن بتحديد ساعة إغلاق الحانات والمقاهى وإجبار السيدات اللاتى يمارسن البغاء على الكشف الدورى وهذا ما تم بالفعل (٨٩).

ومنذ عام ١٨٦٥ ، أصدر المدير العام تعليمات تتعلق بشرطة الآداب تلزم كل عاهرة بأن تخضع أسبوعيا لكشف طبيب ليتأكد أنها سليمة ويسلم لها بطاقة أسبوعية محددة. وتنص هذه التعليمات على أنه من مسئولية من «يديرون هذه البيوت» مراقبة هذه الأوامر، وطرد كل بنت مريضة دون بطاقة أو انتهى تاريخ بطاقتها . وقد اتخذ فوازان بك أيضا التدابير لتضييق الخناق على زيادة عدد الملاهى بضواحى الورش . وفى مايو ١٨٦٧ رأى المقاول كوفرو أن الدعاة انتشرت بكشل غير عادى، ثم جاء بعد ذلك دور شركة مقاولات بوريل ولافالى وشركائهما فى الشكوى من أن عدداً ضخمًا من الملاهى مفتوحة طوال الليل مما يستبقى الموظفين والعمال لساعات متأخرة وينال من مدخراتهم ويجعلهم غير قادرين على العمل فى اليوم التالى (٩٠).

وطلبوا من الشركة اتخاذ إجراءات تهدف إلى إبعاده هذه الأماكن عن مساكن العاملين . أيضا . تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من العمال الأجانب كان يصحب معه خليلة له تقيم فى مسكنه وهو أمر كان يؤدى إلى وقوع جرائم قتل تذهب ضحيتها الخليلة إذ يقتلها جار منافس لحائزها (٩١).

الباعة المتجولون والمحلات العامة :

شهدت منطقة البرزخ نظاما فريدا للباعة المتجولين ذلك أن لفيفًا من التجار اليونانيين كانوا يستقلون مراكب تسير فى القناة البحرية الصغيرة من بورسعيد متجهين بها صوب الجنوب إلى داخل البرزخ، وكانت هذه المراكب تحمل ألوانًا مختلفة من الأطعمة والمشروبات والفواكه وما إلى ذلك . ويبيع بحارة المراكب هذه الأنواع المختلفة إلى العمال الذين يعملون فى الكراكات حيث تكون فى جهات بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان ، وكان أصحاب هذه المراكب هم بحارتها وهم أصحاب تلك البضاعة وهم الذين يتولون بيعها ولذلك كانوا يعرضونها بأسعار منخفضة نسبيًا (٩٢).

هذا فى حين ازدحمت بعض مراكز الحفر بالمحلات العامة مثل المطاعم والمقاهى ومحلات بيع الحلوى (والكباريهات Cabarets) حتى أطلق على بعض تلك المراكز اسم باريس الصغرى Le Petit Paris (٩٣). وكانت فرق الموسيقى الأجنبية تعمل فى المقاهى ويستمر العزف إلى وقت متأخر من الليل(٩٤).

كما شاهد البرزخ الألعاب النارية يقوم بها العمال الأجانب فى احتفالاتهم وأعيادهم(٩٥). وكثر إقبال الأجانب على صيد الطيور بين المساكن مما عرض حياة الجماهير للخطر، ولذلك فكرت الشركة بالاتفاق مع محافظة القناة فى وضع لائحة تحرم صيد الطيور بين المساكن وعلى إلزام أصحاب المقاهى بغلق محالهم ليلاً فى الميعاد الذى يحدده فوازان بك (٩٦).

هذا وقد شهدت طلبات امتياز ملكية الأراضى التى قدمت فى عام ١٨٦٧ فى بورسعيد على تنوع الاحتياجات وتطور المدينة، إذ قدمت الطلبات بغرض إقامة مطعم ومخبز وورشة نجارة وفندق ومساكن ومحل أزياء حديثة ومحل مأكولات ومحل بيع مشروبات كحولية ومغسلة ملابس وبار (خمارة) وورش خشب ومحل معدات ومصنع لشراب الليمون وجزارة ومجمع وصالون حلاقة وحمامات عامة ومحلات للبقالة والتبغ ومصنع للخمور وورشة أسلحة وورشة خياطة ... الخ (٩٧).

النمو السكانى فى البرزخ :

بعد أن كانت أعمال حفر القناة محصورة فى البداية فى نقطة واحدة هى بحيرة شاطئ بورسعيد (١٨٥٩) امتدت تدريجيا لتشمل كل من برزخ السويس الذى كان من قبل مكانا قاحلاً ومعزولاً ولاتطرقه إلا قوافل البدو ، صار بعد ذلك أرضا آهلة بالسكان وفى نمو مستمر، وانضم إلى العمال الملتحقين بأعمال حفر القناة بعد ذلك جماعة من المقاولين والتجار والعمال من جنسيات مختلفة بحثًا عن فرص للعمل .

وعلى أية حال فقد شهدت الفترة من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٩ جذبًا سكانيا كبيراً لمنطقة برزخ السويس، وخاصة من الأجانب الذين قدموا بحثًا عن الثروة والعمل فى هذا الموضع الاستراتيجى الهام، وساعد على ذلك سياسة دى لسبس من جهة وسياسة سعيد باشا وإسماعيل من جهة أخرى، فقد فتحوا أبواب مصر على مصراعيها للأجانب . ويذهب الدكتور محمد صبرى (السربونى) فى وصف هذه الموجه من الهجرة «إلى أنها كانت أقرب إلى الغزو منها إلى الهجرة»[٩٨].

بلغ عدد سكان بورسعيد فى عام ١٨٦٨، الأهالى ٢٧٠٠ رجلاً بينما بلغ عدد الأجانب ستة آلاف شخص [٩٩]. وفى العام التالى كان عدد السكان يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف نسمة وفى عام ١٨٧٤ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٠٢٥٥ نسمة، منهم ٤٠٣٦ أجنبى و ٦٢١٩ من المواطنين . وقد استمر عدد الأجانب فى التناقص حيث بلغ عددهم ببورسعيد ٣٤٥١ شخصًا فى أوائل عام ١٨٧٦ . وذلك لأن من بقى ببورسعيد من الأجانب كان قد ارتبطت حياته بها فاستقر بها متخذاً منها موطنا له . أما الذين قدموا إليها للعمل بشركة القناة أو أى أعمال أخرى ، فإنه بانتهاء العمل فى منطقة القناة فضل بعضهم العودة إلى بلادهم لانتهاء أعمالهم بالقناة ، والبعض الآخر تم استبعادهم خاصة الأشرار منهم إذ أن وجودهم سيحدث مشاكل للأمن [١٠٠]. كما يمكن القول أن افتتاح قناة السويس كان أيضا عامل جذب للعديد من السكان الوطنيين لبرزخ السويس. وطبقًا لتعداد ١٨٨٢ بلغ عدد سكان بورسعيد ١٦٥٦٠ نسمة منهم ١٠٦٩٣ من المصريين ، ٥٨٦٧ من الأجانب ونلحظ هنا أن عدد المصريين قد أصبح ضعف الأجانب وكان أغلب هؤلاء الأجانب من اليونانيين حيث بلغت أعداد الجالية اليونانية فى بورسعيد ٢٣٧١ نسمة ويليهم الايطاليون وعددهم ١٠٥٥ نسمة ويلاحظ أن أعداد الجالية الفرنسية قد بلغوا ٧٨٠ نسمة ، أما الإنجليز فكان عددهم ٧٧٥ شخصا يليهم النمساويون حيث بلغوا ٧٦٦ شخصا بالإضافة إلى أعداد قليلة من : الألمان

والبلجيكيين والإسبان والإيرانيين والآسيويين والهولنديين والدانمركيين ، وإثنان من أمريكا ٢٨٩ من أصل عثماني و ٣٣٣ من السودان والبرابرة[١٠١].

أما عدد سكان الإسماعيلية فى عام ١٨٦٩ فقد بلغ ٦٠٠٠ نسمة ثلثهم من الأوربيين[١٠٢] وفى عام ١٨٨٢ بلغ ٣٣٦٤ نسمة منهم ٢٤٢١ مصريا و٩٤٣ أجنبيا . أما مدينة السويس فقد بلغ عدد سكانها فى عام ١٨٨٢ ، ١٠٩٠٩ نسمة منهم ٩٧٢٦ مصريا و١١٨٣ أجنبيًا [١٠٣]. وبلغ عدد سكانها فى عام ١٨٦٠ ، ٣٠٠٠ نسمة ، وفى عام ١٨٨٢، ١١٣١٦ نسمة وفى عام ١٨٩٧ ، (١٧,٣٦٦ نسمة) [١٠٤].

التركيب الاجتماعى لسكان البرزخ :

يمثل سكان بورسعيد خليطًا من الجنسيات : اليونانيين والفرنسيين والايطاليين والنمساويين والمالطيين والعثمانيين هذا علاوة على المصريين : منهم من عمل بشركة القناة وآخرون جاءوا بحثًا عن فرص للعمل والمال وللاشتغال بالحرف والأعمال التي يجيدونها . وقد اتجه معظم اليونانيين إلى أعمال التجارة وعمل معظم الايطاليين فى الحرف المختلفة وكذلك شارك النمساويون فى الأعمال الفنية الدقيقة بمشروع القناة، كما قام بعض الأجانب من جنسيات مختلفة بإقامة عدة مشروعات استثمارية ببورسعيد[١٠٥].

ومع تقدم العمل فى برزخ السويس وافتتاح القناة للملاحة العالمية ١٨٦٩ ، أدى ذلك إلى جذب الكثير من الأجانب للعمل هناك ، سواء فى شركة القناة أو للتجارة والحرف المختلفة أو فى الخدمات المقدمة للسكان ووجد بعض الأتراك والشوام فى برزخ السويس. ونتج عن ازدياد أعداد الأجانب من بلاد معينة إلى وجود جاليات أجنبية كثيرة العدد مثل بورسعيد التى كانت بها جالية يونانية كبيرة العدد، وأيضا جاليات فرنسية وإيطالية وقد كان لهم تأثير كبير فى حياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية[١٠٦].

الوطنيون :

مع تقدم العمل فى القناة ومع وصول المياه العذبة لبورسعيد بصفة منتظمة وتوفر المأكولات وتحسن الظروف المعيشية وفد إليها السكان من داخل البلاد ، سواء للعمل فى المشروع أو فى الخدمات والأنشطة المختلفة، وأيضا للعمل فى الميناء وخدمة السفن (شحن وتفريغ) وأيضا فى صيد الأسماك وكان لمحافظة دمياط نصيب الأسد فى هذه الهجرة إلى بورسعيد ، ومن مديريات الدقهلية والشرقية والغربية والقليوبية كما هاجر إليها العديد من أهالى الوجه القبلى من جرجا وأسيوط وسوهاج وقنا وأسوان [١٠٧].

ومن عوامل جذب السكان المحليين إلى الهجرة لبرزخ السويس وجود فرص العمل علاوة على وجود العديد من المميزات مثل : المساكن الحديثة ودور اللهو والإنارة والنظافة والحياة الميسورة ، وأن ساعات العمل هناك أقل من مثيلاتها فى الريف، الأمر الذى يسمح بوجود وقت فراغ كبير فى حياة سكان مدن البرزخ . ويلاحظ أن مدينة بورسعيد قد تقدمت على مدينتى الإسماعيلية والسويس فى جذب السكان إليها على الرغم من أن مدينة الإسماعيلية كانت أقرب إلى العمران وتتوافر بها مياه الشرب والمواد الغذائية والمأكولات عن بورسعيد . فقد بدأت مراكز إدارة منطقة البرزخ وتوافرت بها عناصر الرقى والتقدم، أما مدينة السويس فهى من أقدم المدن فى منطقة القناة. وكان من الممكن أن تنمو وتزدهر بدرجة تفوق كثيرا بوررسعيد [١٠٨]. وهكذا نجد أن بورسعيد قد جمعت بين أخلاط شتى من البلدان الأوربية والشرقية والآسيوية كما جمعت بين لغات عديدة يتحدث بها سكانها إلى جانب المصريين الذين نجح بعضهم فى إتقان عدة لغات للتعامل مع الأجانب المقيمين بالمدينة أو مع الأجانب فى السفن التى تفد إلى ميناء بورسعيد . وهكذا جمعت مدن البرزخ بين جنسيات شتى لهم من العادات والتقاليد واللغات واللهجات والأشكال والأزياء والألوان[١٠٩].

الحرف والطوائف فى بورسعيد :

شهدت المدينة وخاصة بعد افتتاح القناة بفترة ظهور العديد من الطوائف والحرف مثل: حمالى الفحم (الفحامة) - حمالى البضائع- الفلايكية والقواربية- النجارين- القماشة- القلافطة- السماسرة- التراجمة- البمبوطية- العيادين والفساخة- البنائيين- النقاشين- البرشمجية- الحدادين- السمكرية- النحاسين ومبيضى النحاس- أهل العلم- العرضحالجية- الصيارفة- الصياغ- الخياطين- المنجدين- الصباغين- العطارين- الدخاخنية- تجار البذور والزيوت- تجار الخضروات- طائفة القهوجية الشرباتلية- السقايين- الفراشين- القبانية- الفرانين- العياشة- (بائعى الخبز) - الحلاقين- الإسكافية- الحمارة والجمالة- الدلالين - الخدامين- البوابين[١١٠].

كما كانت هناك جماعات وفئات معينة ارتبطت بينها بروابط إقليمية وعقائدية واجتماعية وهى: طوائف الصعايده والعربان- وطوائف الشوام والأروام والموارنة والأرمن والايرانيين واليهود وطائفة العبيد[١١١]. وكانت كل طائفة تنتخب شيخًا لها لإدارة شئونها .

التطور العمرانى والطابع الجمالى للمبانى فى برزخ السويس:

كانت الخيام فى مطلع عمليات الحفر وسيلة لإيواء الرواد الأول من العمال، وكانت مخيمات موقتة ثم بعد ذلك شيدت أكشاك خشبية بالقرب من ساحات الحفر، كان قد استخدمها من قبل الجيش الفرنسى إبان حرب القرم (Crimée) وقد شيدت على الشريط الأرضى الذى يفصل البحر المتوسط عن بحيرة المنزلة. ثم بعد ذلك حلت محل الأكواخ الخشبية منازل متنقلة وشاليهات وأكشاك من الخشب مستوردة من فرنسا [١١٢].

ويشمل المخيم النموذجى مثل مخيم هضبة الجسر المبانى الآتية [١١٣]:

مستشفى ومساكن للطبيب والصيدلى ومخبز جزارة ومساكن راهبات وكنيسة صغيرة وبيت للكاهن ومحل مركزى ومحل بيع بالتجزئة ومساكن للمستخدمين فى المقاولات والعاملين بالشركة والمقاول العام والمهندس رئيس القطاع ومكاتب المقاولات ومكاتب شركة القناة ، وورش النجارة والحدادة وصناعة العربات والمناشر والمخارط. ومكتب إنشاء الخيام، وسوق للتجارة الحرة وحلقة ترفيهية وفندق للمسافرين ومقاهى ومطعم ومساكن للعمال الأوربيين ومكتب هيئة النقل والإسطبلات وحظيرة الجمال . وبجوار المخيم قرية عربية بها مساكن يختلط فيها التجار والمقاهى وتختلف عن أساليب تشييد المخيم المخصص للأوربيين، ذلك أن معظم مبانى القرية العربية من أكواخ خشبية ، وبعض هذه الإنشاءات لها وجود مؤقت للغاية، إذ إنه بعد انتهاء العمليات القريبة منها تختفى هذه المخيمات المتنقلة أو المؤقتة أو تنقل لتلحق بمواقع الأشغال . وفى عام ١٨٦٤ أقام العاملون فى أكواخ عائمة تأوى وتحفظ معداتهم وتجنبهم مشقة ومتاعب السفر فى الصحراء [١١٤].

أما مدينة الإسماعيلية فتعتبر حالة منفردة من البداية فقد وضع تصميم بنائها لتقوم بدور مركزى كعاصمة إدارية بعد تولى فوازان بك رئاسة قسم الأشغال الذى رأى أنها تقع فى منتصف المسافة فى البرزخ وتم وضع حجر الأساس للمدينة الجديدة فى أبريل عام ١٨٦٢ وأطلق عليها فى أول الأمر اسم (التمساح) وابتداء من ٤ مارس ١٨٦٣ أطلق عليها اسم (الاسماعيلية) تكريما لجلوس الخديوى إسماعيل على العرش وأصبحت المقر العام للشركة حيث يربط التلغراف بينها وبين بقية ورش القناة المختلفة وكذلك بين الزقازيق والقاهرة والإسكندرية ومرسيليا وحتى باريس [١١٥].

والجدير بالذكر أن مدينة الإسماعيلية قد أنشئت بخلاف بورسعيد على أساس مخطط منذ البداية فقد نشأت الإسماعيلية مع الورشة، على شكل هندسى يحدد تخطيط الطرق والمبانى

بشكل منسق . وتم وضع برنامج للتمييز بين المخيمات فى الإسماعيلية ، كما هو الحال فى بقية المخيمات فى البرزخ بحيث تظهر فعلا على الوحدات تسمية أحياء كثيرة تشكل وحدتان مركزيتان : «الحى الأوربى» بينما الوحدة الواقعة فى الشرق تصور مسبقا «الحى اليونانى» والوحدة الواقعة فى الغرب تدل على أنها «الحى العربى».

وهكذا بنيت الإسماعيلية من العدم فليس لها ماضى ولاتاريخ وأطلق على الميادين والشوارع أسماء تتصل جميعها بحفر قناة السويس، من أجل ترسيخ اقتران المدينة بالقناة رمزيًا (١١٦).

وقد أقامت الغالبية العظمى من مستخدمى شركة القناة فى وسط المدينة بالقرب من ميدان شامبليون فى مبانى متناسقة الشكل، وخصصت المنازل حول الميادين للمستخدمين المتزوجين. أما المنازل التى تحتل الزوايا فقد أعدت خصيصًا لرؤساء إدارة الشركة. وقد تم عزل المستخدمين غير المتزوجين فى جزيرة صغيرة مخصوصة أطلقت عليها الشركة «مربع غير المتزوجين» ، وأطلق عليها السكان اسم «أحياء المسعورين» . وهكذا لم يتردد فوازان بك فى إقامة ألوان عديدة من التفرقة فى مدينة الإسماعيلية (١١٧).

جدير بالذكر أن الفرنسيين كانوا يخططون المدن فى برزخ السويس على اعتقاد راسخ أنهم سيبقون فيها أبدا الدهر باعتبارها قطعة من أرض فرنسا تتخذ الطابع الفرنسى من حيث التخطيط والتنسيق والشكل الجمالى، وتلك هى طبيعة الاستعمار الاستيطانى .

حددت الشركة فى عام ١٨٦٥ أنماطا خاصة للمبانى السكنية للعمال والمستخدمين بالشركة من أجل تخفيض تكاليف المبانى فى مدن البرزخ وفى نفس الوقت إشباع بعض المتطلبات الجمالية أما بالنسبة للمبانى الأكثر تعقيداً فقد اتبع أسلوب المخيمات العسكرية.

وعندما زار هنرى بلور (Sir Henry Bulwer)(١١٨) مدن القناة أعطى لنا وصفا دقيقًا لتلك المساكن التى شيدتها الشركة بقوله : «انها نصف كوخ ونصف منزل» , "Half Hut Half House" وأنها تشبه تلك المساكن المقامة على مراكز الحدود طبقا للحضارة الأمريكية(١١٩).

والطابع الغالب الذى ما زال موجودا لجميع مساكن الشركة المؤممة فى مدن القناة الثلاث يشهد بهذا الطابع المعمارى المكون من شرفات خشبية وجسم المسكن من الطوب . هذا الطابع الفرنسى (لمدن البرزخ التى أخذت تتكاثر) أكده السفير «هنرى بلور» بقوله :

" Here at Port Said, Timsah and Suez, were Growing French Towns, French Lands Around of Them ..."(١٢٠).

دور العبادة فى برزخ السويس :

حرص دى لسبس على أن يوفر أماكن للعبادة حرصا منه على الظهور بمظهر التسامح الدينى والحفاظ على حرية إقامة الشعائر الدينية لأنه قد جمع بين مختلف الأديان والمذاهب ، كل ذلك بهدف استمرار إقامة العاملين بمشروع القناة وأنها قد استطاعت أن تجمع بين مختلف الأديان والمذاهب، وأيضا فى إطار المحافظة على الأمن بدليل أن شركة قناة السويس خصصت موظفين مسئولين عن الأمن والأديان فى نفس الوقت .

وقد قام دى لسبس بنشاط ملحوظ فى الحقل الإسلامى، كان من مظاهره الحرص على أن يذكر فى إعلانات الشركة أنها قد شيدت مسجداً فى كل قرية من القرى التى أقامتها فى ساحات الحفر، واستعانت الشركة ببعض رجال الأزهر، فبادرت سنة ١٨٦٠ إلى تعيين إمام للمسلمين فى الحى العربى ببورسعيد، الذى انشأته شرقى الميناء ، لتكون إقامته المستمرة هناك من أسباب إقبال المسلمين على ذلك المكان المقفر(١٢١). وفى حقيقة الأمر لم يكن هذا المسجد سوى شونة غلال عليها مئذنة لاتليق به رغم اهتمامها ببناء الكنائس للأجانب بشكل جيد(١٢٢).

وبازدياد عدد سكان بورسعيد واتساع رقعتها وبخاصة فى قرية العرب، أمر الخديوى توفيق فى ديسمبر ١٨٨٢ بإنشاء مسجد كبير في المدينة هو «المسجد التوفيقى» سمى باسمه. أيضًا أقام دى لسبس كنيسة لليونانيين الموجودين فى بورسعيد تشجيعا لهم على الإقامة بها ، وتنازل لهم عن الأرض المقامة عليها مجانًا ، وكانت هذه الكنيسة تتبع بطريرك الأرثوذكس ، كما أقيمت كنيسة أخرى للكاثوليك في بورسعيد فى آواخر الستينات(١٢٣).

هذا وقد خضعت إدارة الخدمات الدينية، مثلها فى ذلك مثل إدارة الخدمات الصحية فى السنوات الأولى، للوكالة العليا والإدارة العامة للأشغال بالشركة بالتناوب . ففى عام ١٨٦٥ دخلت هذه الإدارة «إدارة المراسم الدينية» فى اختصاصات إدارة الأشغال العامة للشركة وقامت وعلى نفقتها ببناء مساجد وكنائس كاثوليكية ودور عبادة صغيرة أرثوذكسية فى مراكز النتاط الرئيسية فى البرزخ، وفى أول فبراير ١٨٦٢ تم افتتاح كنيستين :

الأولى : فى الجسر مهداه إلى «سانت مارى دى ديزار» تخليدا لمرور العائلة المقدسة عند هروبها إلى مصر(١٢٤). **والثانية**: أقيمت فى بورسعيد برعاية سانت أوجينى، كما حظيت الإسماعيلية بكنيسة أخرى تحت شفاعة سان فرانسوا دى سال (Saint Francois De Sales) وأثار طرازها المعمارى القوطى الحديث بعض التهكم من جانب كثير من المسافرين المارين بقناة السويس وكان فوازان بك مسئولا عن اختيار هذا الطراز المعمارى فقد عدل مشروع المهندس Viller عندما عدل شكل النوافذ مقترحا أقواسا من الطراز القوطى بدلا من المستطيلات(١٢٥).

وفى السويس تم حصر سبعة مساجد وكنيسة كاثوليكية يخدم بها آباء الأرض المقدسة وكنيسة صغيرة انجليكانية وكنيسة يونانيه، ونجد أيضًا رهبان فرنسيسكان فى بورسعيد والإسماعيلية(١٢٦).

وقد تحملت الشركة صيانة دور العبادة، كما حرصت على مكافأة القائمين على خدمة مختلف الديانات، ففى شهر إبريل ١٨٦١ عينت الشركة فى منطقة الجسر الشيخين : إبراهيم عبد العزيز إمام وقاضى، وعمر مؤذن للقرى العربية، ومنحت الأول راتبًا شهريا قدرة ١٢٥ فرنكا والثانى ١٣ فرنكًا . مما ترتب عليه زيادة عدد السكان فى هذه المنطقة فقد لاحظ المهندس مانتو فى عام ١٨٦٠ من أن القرية العربية فى بورسعيد قد ازداد عدد سكانها كثيراً منذ وصول هذا الإمام. ويقوم الأئمة المنتمون إلى مفتى القاهرة الكبير بمهام القضاة للصلح بين الأهالى ، كما كانوا يحررون العقود ووثائق الزواج. ومع ازدياد عدد السكان فى برزخ السويس ، صاحبه ازدياد فى عدد رجال الدين الذين يتقاضون أجور من الشركة ، ففى عام ١٨٦٨ شملت الخدمة الدينية خمسة كهنة وثلاثة خدام كاثوليكيين وأربعة مؤذنين وكاهنين أرثوذكس وثلاثة خدام يونانيين تم توزيعهم على المخيمات الرئيسية .

وفى هذه السنة تقاضى الكهنة الأرثوذكس ٢٤٠٠ فرنكا وخدامهم ٩٦٠ فرنكا، أما المؤذنون فأجرهم ٩٠٠ فرنكًا ما عدا مؤذن بورسعيد فقد تقاضى ١٥٠٠ فرنكًا دون معرفة سبب هذا التمييز، فلم تتعامل الشركة مع كل الديانات على قدم المساواة(١٢٧).

وكان للشركة حق اختياريهم وأيضا حقها فى طرد الذين لاترضى عنهم بسبب أفكارهم أو تصرفاتهم . فقد طردت الكاهن نيكيتا Nekita فى يناير ١٨٦٤ بحجة أنه يمثل خطرا حقيقًا لتأثيره السيئ فى نفوس الرجال، ونتج عن ذلك مظاهرة احتجاج فى بورسعيد نجح رجال شركة القناة فى تهدئتها (١٢٨).

وحقيقة الأمر أن دى لسبس قد أجاد فن الدعاية للمشروع واستغل الجانب الدينى استغلالاً جيداً والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها :

وطد دى لسبس علاقته بالشيخ رفاعة الطهطاوى الذى أصبح من المؤيدين لمشروع القناة والداعيين له فى مصر، فنظم الطهطاوى قصيدتين امتدح فيهما مشروع القناة، وقام الدكتور بيرون Peron بترجمتهما للغة الفرنسية .

وأيضا كانت الشركة تستكتب بعض الكتاب المصريين مقالات تهدف إلى الدعاية للمشروع ودعوة الجماهير فى مصر إلى الاشتراك فى تنفيذه ، وقد ذهب هؤلاء الكتاب إلى أن حفر القناة فى البرزخ «بين البحرين» إنما هو تطبيق عملى لما ورد فى القرآن الكريم !!! وجريدة شركة القناة سجل يحفل ببعض من هذه المقالات التى ترجمت إلى الفرنسية وفيها ذكر بعض آيات القرآن الكريم(١٢٩). وهذه السياسة التى سار عليها دى لسبس هى نفس السياسة التى تسير عليها حاليا ما يعرف باسم : «جمعية أصدقاء فردنياند دى لسبس»(١٣٠).

الحدائق والتماثيل والاحتفالات :

ازدانت مدن البرزخ بالعديد من الحدائق ، ففى بورسعيد وجدت حديقة المنشية فى وسط المدينة، التى اهتمت بها المحافظة فقامت بغرس العديد من الأشجار والأزهار بها. وقامت شركة القناة بتوسيع هذه الحديقة فى عام ١٨٧٣ وأصلحت فسقيتها وطرقها ، وإقامت كشك لعزف الموسيقى بها مرتين أسبوعيا ، كما أجرى توسيع آخر بها عام ١٨٧٥ وأضيئت بالفوانيس التى أحضرت إليها من الإسكندرية ، كما زودت بكراسى خشبية لراحة روادها(١٣١).

حرصت شركة القناة على إقامة العديد من التماثيل فى مدن القناة التى تمجد تاريخ عظمائها ، وأول تلك التماثيل تمثال دى لسبس الذى أقيم فى مدخل القناة فى بورسعيد (ليشاهده كل من يعبر القناة) فى إحتفال مهيب فى عام ١٨٩٩ (١٣٢). وتمثال آخر لتوماس واجهورن (ضابط بحرى انجليزى) أقامه دى لسبس، وهو تمثال نصفى عند مدخل قناة السويس الجنوبى بمدينة بور توفيق نقشت على قاعدته العبارة التالية : «أقامت الجمعية العمومية لقناة السويس هذا النصب التذكارى للملازم واجهورن المولود فى شاتام سنة ١٨٠٠ والمتوفى بلندن سنة ١٨٥٠ وذلك اعترافا باخلاصه فى افتتاح الطريق البرى بمصر» (١٢٣).

شهدت مدن القناة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر العديد من الاحتفالات أقامها الأجانب المقيمون فى البرزخ فى مناسبات عديدة ترتبط بأعيادهم القومية وأيضًا للترويح والاستمتاع فى الأجازات ، وكانت هذه الاحتفالات مصحوبة بالموسيقى والرقص والمسابقات الرياضية وغيرها بدعم من شركة القناة . وعلى الجانب الوطنى كانت هناك الموسيقى والأغانى الشعبية ومن أهمها «السمسمية» التى هى من تراث وانعكاسات مرحلة السخرة فى حفر قناة السويس (١٣٤).

المقابر :

أقامت شركة القناة عدداً من المقابر غرب بورسعيد جنوب قرية العرب وبجوار بحيرة المنزلة، للموتى من كافة البلاد ومختلف الأديان : واحدة للمسلمين والثانية لليونانيين والكاثوليك وأخرى للبروتستانت ونظراً لارتفاع منسوب المياه فى أرض بورسعيد ، فقد كان يتم بناء حجرات أو حوائط من الحجارة وكانت تقام الواحدة فوق الأخرى. ولم تكن شركة القناة تسمح بالدفن فى هذه المقابر دون دفع ثمن هذه المقبرة ، وكان بواقع خمسين فرنكا للرجل و٢٥ فرنكا للطفل بخلاف باقى المصاريف ، ويقتصر القبر على شخص واحد . أما الموتى والفقراء من جميع الأجناس فكان يتم دفنهم مجانا وكانت محافظة بورسعيد تتولى بعد ذلك دفع المصاريف الخاصة بإجراءات دفن الفقراء من أبناء العرب على سبيل الإحسان . وفى عام ١٨٦٦ طالبت محافظة بورسعيد شركة القناة إقامة عدد من المقابر للإسرائيليين لعدم وجود مقابر لهم(١٣٥).

ولما كانت شركة القناة ترفض أحيانا دفن بعض الفقراء من أبناء العرب، ما لم يدفع عنهم القيمة التى حددتها ، فقد قامت المحافظة ببناء عدد من المقابر تخصص لأمثال هؤلاء فى قطعة أرض تقع غرب قرية العرب (١٣٦). ثم بعد ذلك أشرفت محافظة بورسعيد على المقابر ابتداء من يوليو ١٨٧١ . هذا وقد تقدم (حاخام باشى) طائفة الإسرائيليين فى بورسعيد سنة ١٨٧٠ بطلب لمحافظة بورسعيد لبناء عدد من المقابر لأبناء طائفته وذلك لأن موتاهم يدفنون بمقابر المسلمين مما يتعارض مع شريعتهم ووافقت الحكومة المصرية على تخصيص قطعة أرض لجعلها جبانة للإسرائيليين أسوة بباقى المقابر مع إنشاء سور خاص بها(١٣٧).

الهوامش

١- د. محمد السيد غلاب ، منطقة السويس الجغرافية خلال التاريخ، بحث فى كتاب بعنوان : السويس. القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . د.ت ص ص١٦-٢٢ .

٢- د. إبراهيم نصحى ، السويس فى العصور القديمة حتى الفتح العربى، بحث فى كتاب: السويس، المرجع السابق، ص ص٤٣-٤٥ .

٣- د. عبد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٢٦)، ٢٠٠٢ ص ص١٤-١٥ .

٤- نتالى مونتل، حفر قناة السويس (المشروع والتنفيذ دراسة في تاريخ ممارسات التقنية) ترجمة د.عباس أبو غزالة ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ، ص٤٠ .

٥- نتالى مونتل، المرجع السابق، ص ص٣٧-٣٨ .

٦- Voisin Bey , Le Canal de Suez . T.6. Descriptuon des travaux de Premier etablissement. Paris 1906 , p. 67 .

٧- نتالى مونتل، مرجع سابق ذكره ص٤٠ ، وراجع أيضًا كلا من . عمد العزيز الشناوى، السخرة فى حفر قناة السويس، مرجع سبق ذكره ص٦٨ ، Voisin Bey , Op. Cit.p.163 وراجع أيضًا : Arnold Wilson , The Suez Canal, Its Past Present and Future, London 1939 . pp. 32-33.

٨- Arnold Wislon . Op. Cit, p. 33 .

٩- الشناوى ، مرجع سابق ذكره ص٨٣ .

١٠- المرجع السابق، .

١١- المرجع السابق ، ص ص٨٨-٨٩

١٢- راجع تفاصيل هذه اللائحة فى كتاب فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس، القاهرة ، مطبعة المعارف ومكتبتها فى مصر ١٩٤٤ ، ص ص١٨٠-١٨١ .

١٣-الشناوى ، السخرة مرجع سبق ذكره ص١٠٩

١٤- المرجع السابق، ص١٢٩

١٥- Hallberg, Charles W, The Suez Canal. N.Y . 1931 . p. 201 .

Douim George: Histoire de Régne du khédive Ismail . T.I. Rome , 1933 , p. : وراجع أيضا 24 .

Lord Kinross, Between two Seas , the Creation of the Suez Canal . London . : وراجع أيضا John Murray , 1968 , p. 156 .

١٦- الشناوى ، السخرة ، ص٣٠ ، ص ص١٢٩-١٣٥ .

١٧- المرجع السابق، ص١٤٧ .

١٨- المرجع السابق، ص١٤٨ .

١٩- المرجع السابق ، ص ص١٤٧-١٤٩ .

٢٠- انظر الخريطة رقم١ على موقع الآبار (مأخوذة عن Voisin Bey. Op. Cit لوحة رقم٤) .

٢١- Voision Bey , Op. Cit., T.VI , pp. 79 , 145 , 168 .

٢٢- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٣٣ .

٢٣- الشناوى، مرجع سبق ذكره ص٢٢٨ .

٢٤- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٣٥ وأيضا الشناوى، مرجع سابق، ص٢٢٨ .

٢٥- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٣٥ انظر الخريطة رقم ٢ .

٢٦- الشناوى ، السخرة ص٢٢٩ .

٢٧- الشناوى ، ص٢٣٢ ، نتالى مونتل ، مرجع سابق، ص ص١٣٥-١٣٦ .

٢٨- Fontane Marius , le Canal Martime de suez , Paris , 1869 . T. 2, p. 138 .

٢٩- Vosion Bey . Op. Cit. T. p. 168 .

٣٠- Hoskins Halford Lankester, British Routes to India, N.Y. 1928 , p. 365 .

٣١- ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها، ترجمة عبد الفتاح عنايت ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤م، ص١٩٥ .

٣٢- Diecy Edward : The Story of Khedivate. London 1902, p. 36 .

٣٣- الشناوى ، السخرة ص ص٢٣٢-٢٣٣ .

٣٤- المرجع السابق ، ص٢٣٤ وراجع أيضا . Vosion Bey, Op. Cit. T. p. 220

٣٥- الشناوى، المرجع السابق ، ص٢٣٦ .

٣٦- المرجع السابق، ص٢٤٩

٣٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢٠٧ .

٣٨- المرجع السابق، ص٢٠٨

٣٩- المرجع السابق، ص٢٠٨

٤٠- الشناوى ، السخرة ، ص٢٦٢ .

٤١- نتالى مونتل ، مرجع سابق ذكره ، ص٢٠٨ .

٤٢- الشناوى : السخرة ، ص٢٦٤ . وقد ذكر اوبار روش ذلك فى تقاريره السنوية التى كان يرفعها إلى إدارة الشركة . وراجع أيضا : نتالى مونتل، ص٢١١ .

٤٣- الشناوى، السخرة، ص٢٧٦ .

٤٤- Angelo Sammarco , Histoire de L'Egypte Moderne, Depuis Mohammed Ali Jusque L'Occupation Britannique (1801-1882). T. 3 le Caire 1937 , p. 55 .

٤٥- الشناوى، السخرة ص٢٦٨ .

٤٦- Voisin Bey , Op. Cit . tom .6, p. 280 .

٤٧- الشناوى، السخرة ، ص٢٧٢ .

٤٨- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١١

٤٩- الشناوى، السخرة ص ص٢٧٤-٢٧٦ .

٥٠- المرجع السابق، ص٢٧٧ .

٥١- المرجع السابق، ص ص٢٨٠-٢٨١ وراجع أيضا : نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص٢١١-٢١٢ .

٥٢- المهندس برنارد مانتو Bernard Mantaut مهندس الطرق والكبارى شغل فى بادئ الأمر بشركة القناة وظيفة رئيس القسم المركزى للأعمال بالإسكندرية ثم مسئول قطاع التمساح فى البرزخ وهو أمر يعتبر فى غاية الأهمية لمعرفة نشاط الشركة فى سنواتها الأولى وطبيعة الصعوبات التى قابلها فى ذلك الوقت : فقد كتب مانتو لوزير التجارة والاشغال العامة فى فرنسا فى بداية عام ١٨٦٢ مذكرة سريه يشرح فيها الأسباب الحقيقية التى دفعته إلى الاستقالة والعودة إلى فرنسا وتعتبر هذه الشهادة

فى غاية الأهمية، لأنها تكشف العديد من خفايا الأمور، وأنها لجأت إلى استخدام الأسلوب المباشر والصراحة المطلقة (ملف مانتو تقرير رقم (2 / ANF 14-2285 وهو موجود بالأرشيف القومى الفرنسى) راجع : نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره، ص٤٢ .

٥٣- نتالى مونتل، المرجع السابق، ص٥١ .

٥٤- نتالى مونتل ، ص٤٨ .

٥٥- المرجع السابق، ص ص٤٨-٤٩ .

٥٦- ألبرت فارمان، مرجع سبق ذكره ص١٩٤ .

٥٧- Voisın Bey , Op. Cit. T.6,. p. 276 .

٥٨- Bertrand Alphonse et Emile Ferrier . Ferdenand de Lesseps , sa vie son ouvre , Paris , 1887 , p. 290 .

وهناك وثيقة يرجع تاريخها إلى أوائل عام ١٢٨١ هـ (الموافق ٤ أغسطس سنة ١٨٦٤) تفيد «أن مجموعة من أبناء قبيلة غامد قد شاركوا فى حفر قناة السويس ، وهى رسالة من شخص يدعى مساعد أرسلها لوالده بعد ٢٧ يومًا من وصوله إلى السويس . وسيره يومين على الأقدام حتى وصل إلى مواقع الحفر فى برزخ السويس. ويشرح فيها هواجسه وقلقه على أهله وكيف أن (شوطة) مرض الكوليرا قد أهلكت الكثير من الخلق وأن هناك عدد كبير من قبيلة غامد سافر فى شكل جماعات للمشاركة فى حفر قناة السويس».

من تاريخ الوثيقة يتضح أنها بعد الغاء السخرة (الذى تم فى ١٥ مارس ١٨٦٤) أى أنه كان فى ظل العمل الاختيارى، أما وباء الكوليرا فكان كما ذكرنا من قبل فى ١٨٦٥ ، ولذا فإن تاريخ الوثيقة فى حاجة إلى إعادة دراسة. (المصدر: جريدة عكاظ بتاريخ ٢٥ ذو الحجة سنة ١٤٢٥هـ نقلا عن :موقع الانترنت «مجالس الصقور» منتدى قبيلة غامد الرئيسى) .

٥٩- Ritt Olivier , Histoire de L'isthme de Suez , Paris, 1889 , p. 318 .

٦٠- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٣ معية تركى وثيقة رقم ٥٣ من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ١٧ شوال ١٢٨٤هـ (١١ فبراير ١٨٦٨) .

٦١- الشناوى ، السخرة ص٧ وراجع أيضًا : Lord Kinross , Op. Cit, p. 156 .

٦٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٥ معية تركى وثيقة رقم ٢٦٨ من محمد شريف باشا ناظر الخارجية إلى المعية السنية بتاريخ ٢٩ جمادى آخر ١٢٨٢ (١٩ نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٣- محفوظات عابدين- دفتر تلغرافات رقم ١ وارد عابدين برقية رقم ٦٢٥ من محافظ الاسكندرية إلى رياض باشا فى ١١ جمادى آخر سنة ١٢٨٢ (أول نوفمبر ١٨٦٥) .

٦٤- نتالى مونتل ، المرجع السابق، ص٢١٣ .

٦٥- Voisin Bey , op. cit, T. p. 274. وراجع أيضا Ritt Olivier, Op. Cit , pp. 285-286 .

٦٦- Erckman - Chatrian . Souvenirs d'un Ancient Chef du Chantier a L'isthme de Suez . Paris 1988 , pp. 76-77 .

٦٧- نتلى مونتل، مرجع سبق ذكره ص٢١٣ .

٦٨- المرجع السابق، ص٢١٤ .

٦٩- Erckmann , Op. Cit, pp. 76-77 .

٧٠- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٣ .

٧١- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٣ معية تركى وثيقة رقم ١٠٦ ، من إسماعيل حمدى بك محافظ القناة إلى مهردار الخديوى بتاريخ ٦ ذى القعدة ١٢٨١ (١٣ إبريل ١٨٦٥) .

٧٢- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٩١ ، من شريف باشا إلى الباب العالى (إسماعيل) وبها مرفق عربى من على رشاد محافظ السويس إلى ناظر الداخلية والخارجية بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ (٣ يناير ١٨٦٦) ومرفق بها أيضا تقرير عن الحادث وضعه على كشك (معاون ضبطية السويس) ووقعه معه بدر أغابلوكباشى السوارى بتاريخ ١٤ شعبان ١٢٨٢ .

٧٣- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٤٢ معية تركى وثيقة رقم ٥٣٢ ، من حسين فهمى بك محافظ السويس إلى المعية السنية بتاريخ ٩ رمضان ١٢٨٤ (٤ يناير ١٨٦٨) ووثيقة رقم ٥١٨ بها مرفق عربى من مأمور الشلوفة محافظ السويس بتاريخ ٢ رمضان ١٢٨٤ (٢٨ ديسمبر ١٨٦٧) ومرفق عربى بتاريخ ٣ رمضان ١٢٨٤ (٢٩ ديسمبر ١٨٦٧)

٧٤- المصدر السابق.

٧٥- المصدر السابق.

٧٦- محفوظات عابدين- دفتر تلغراف دار عابدين برقية ١١٥٢ من محافظ القناة إلى رياض باشا بتاريخ ٢٠ حمادى الأولى ١٢٨٦ (٢٨ أغسطس ١٨٦٩) .

Roche. Aubert, Rapports sur L'etat Sanitaire et Medical des travillurs et des Et- -٧٧
ablissment, du Canal Maritime de L'isthme du Suez , paris 1868 .

وراجع أيضًا : نتالى مونتل ، ص٢٢١ .

٧٨- محفوظات عابدين - دفتر ٩ تلغرافات - وارد عابدين .

٧٩- نتالى مونتل : ص٢٢١ .

٨٠- Ereckmann. Op. Cit, p. 268 .

٨١- عبد السلام عبد الحليم عامر، طوائف الحرف فى مصر (١٨٠٥-١٩١٤)، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر العدد ٤٥- الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣. ص٢٠٠ .

٨٢- Ereckmann , Op. Cit , p. 76 .

٨٣- محفوظات عابدين - محفظة رقم ٤٢ معية تركى وثيقة رقم ٢٧٥ ، من مراد إلى مهر دار جناب الخديوى بتاريخ ٢٨ ذى الحجة ١٢٨٤ (٢١ إبريل ١٨٦٨) .

٨٤- Ereckmann. Op. Cit, p. 155 .

٨٥- Ibid .

٨٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٥ معية تركى وثيقة عربية رقم ٣٨٧ من إسماعيل حمدى بك إلى مهردار جناب الخديوى بتاريخ ١١ جمادى آخر ١٢٨٢ (١ نوفمبر ١٨٦٥) .

٨٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٦ .

٨٨- المرجع السابق، وراجع أيضًا عن هذا الموضوع: زين العابدين شمس الدين، بورسعيد تاريخها وتطورها منذ نشأتها ١٨٥٩ حتى عام ١٨٨٢ . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ ، ص ص١١٤-١١٥ .

٨٩- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢٢٠ .

٩٠- المرجع السابق نقلا عن وثائق شركة قناة السويس : AN 153 AQ/ TE137 رسالة من مقاولات بوريل ولافالي وشركائهما إلى فوازان (٢١ مايو ١٨٦٩) .

٩١- محفوظات عابدين- دفتر رقم ١٠ تلغراف وارد عابدين برقية رقم ٨٥٨ من محافظ القناة إلى المعية السنية بتاريخ ٢٨ رجب ١٢٨٧ (٣ نوفمبر ١٨٦٩) ويوجد فى دفاتر التلغرافات الواردة إلى

قصر عابدين عدد كبير من البرقيات بهذا الخصوص.

٩٢- Ritt, Op. Cit, pp. 351-352 .

٩٣- Erckman, Op. Cit, p. 267 .

٩٤- Ibid, p. 155 .

٩٥- محفوظات عابدين- محفظة رقم ٣٦ معية تركى وثيقة رقم ١٤٥ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادة مهر دار الخديوى بتاريخ غرة شعبان ١٢٨٢هـ (٢٠ ديسمبر ١٨٦٥م) .

٩٦- محفوظات عابدين- محفظة ٣٢ معية تركى وثيقة رقم ١٢٢ من إسماعيل حمدى بك إلى سعادتلو أفندم بتاريخ ٢٠ ذى القعدة ١٢٨١ (١٦ أبريل ١٨٦٥) .

٩٧- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٠٤ .

٩٨- Sabri , M. Bey . L'Empire Egyptienne sous Ismail et L'ingerence Anglo- Francise, Paris , 1939 , p. 207 .

٩٩- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ص٥٣ .

١٠٠- المرجع السابق، ص٥٤ .

١٠١- المرجع السابق، ص ص٥٤-٥٥ .

١٠٢- فؤاد فرج ، منطقة قناة السويس ومدن القناة ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص٢٩٢ .

١٠٣- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص٥٥

١٠٤- فؤاد فرج، مرجع سابق ذكره، ص٣٦٦ .

١٠٥- زين العابدين ، مرجع سابق ذكره ص ص٥٥-٥٦ .

١٠٦- المرجع سابق ذكره ص٥٦ .

١٠٧- المرجع السابق ، ص٥٧

١٠٨- المرجع السابق، ص٥٩ .

١٠٩- زين العابدين ، ص٥٩

١١٠- المرجع السابق ص ص٧٧-٧٨ .

١١١- المرجع السابق، ص٧٨ ، بعد توقيع معاهدة ١٨٧٧ بين مصر وانجلترا بشأن التعاون على منع تجارة الرقيق ابلغ قسم جوازات بورسعيد بأن يوضح فى جوازات السودانيين أو الأحباش المغادرين للنظر بأنهم أحرار ، المرجع السابق، ص٩١ .

١١٢- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص ص١٩٨-١٩٩ .

١١٣- وهى أصعب منطقة فى ساحات الحفر أخذت مجهودا هائلا من عمال السخرة لارتفاعها وهى المنطقة الواقعة بين القنطرة وبحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 154

١١٤- نتالى مونتل، مرجع سبق ذكره ص ص١٨٩-١٩٠ ، ١٩٨ .

١١٥- المرجع السابق ص ص١٩١-١٩٣ .

١١٦- المرجع السابق، ص ص١٩٢-١٩٦ .

١١٧- المرجع السابق، ص١٩٧ .

١١٨- سفير بريطانيا فى الآستانة قام بزيارة لبرزخ السويس - بدعوة من دى لسبس - بعد بضعة أسابيع من تدفق مياه البحر المتوسط إلى بحيرة التمساح، وكان قد زار الصعيد من أجل الاستشفاء صحيًا ثم قام بزيارة القطاع الشمالى للقناة بصحبة دى لسبس ، ونزل فى مبنى بالإسماعيلية تابع للشركة يطل على بحيرة التمساح ، راجع . Lord Kinross, Op. Cit, p. 155

١١٩- أنظر الشكل رقم (٢) الخاص بمساكن العمال والموظفين للشركة.

١٢٠- . Lord Kinross, Op. Cit, pp. 155-156

١٢١- زين العابدين شمس الدين، بورسعيد ، ص١٠٣ وما زال هذا المسجد فى بورسعيد وبعد تجديده يعتبر من أكبر مساجد بورسعيد .

١٢٣- المرجع السابق، ص١٠٤ .

١٢٤- نتالى مونتل ، مرجع سبق ذكره ص٢١٧ .

١٢٥- المرجع السابق.

١٢٦- المرجع السابق ص ص٢١٧-٢١٨ .

١٢٧- المرجع السابق. لقد أنصفت الباحثة الفرنسية فى تعليقها هذا ذلك أن الشركة قد دأبت فى تعاملها مع الجانب الوطنى فى البرزخ، بأنه فى المرتبة الثانية فى كل الأمور ولاسيما الإسكان ، المياه، الأجور والخدمات المختلفة... الخ .

١٢٨- المرجع السابق، ص٢١٨ .

١٢٩- لمزيد عن هذا الموضوع راجع : الشناوى ، السخرة ص ص٨٨-٨٩ .

١٣٠- L'Association du Souvenir de Ferdinand de Lesseps et du Canal de Suez.

ظهرت هذه الجمعية فى السنوات الأخيرة ويرأسها حاليا السيد / أرنودى راميير (Arnaud Ramiere) أما الرئيس الفخرى حاليا هو السيد/ جون بول كالون الذى كان المفاوض الفرنسى ، عند تأميم القناة ١٩٥٦ ، مع الجانب المصرى للوصول إلى التعويض المناسب للشركة . وقد تكونت هذه الجماعة بعد التأميم وتحولت الشركة الفرنسية فى باريس إلى مجرد شركة استثمارية تملك الأموال ولاتدير القناة وليس لها أى دور ، ولكنها ملكت أرشيف بباريس، فتكونت هيئة أهلية أطلقت على نفسها اسم المذكور ، وأعلنت أنها تعتبر نفسها اتحاد يمجد ذكرى فرديناند دى لسبس وقناة السويس ، وأنها مسئولة عن التراث التاريخى الذى يسرد تاريخ قناة السويس وأن هذا الإرث التاريخى قد تم تصنيفه مؤخرا بمعرفة هيئة اليونسكو كذاكرة للعالم Memore du Monde وأنه لايخص فقط كل من مصر وفرنسا وإنما يخص العالم أجمع ويضم وثائق الشركة عن الفترة من ١٨٥٤ حتى ١٩٥٧ . وقد تم نقلها إلى الأرشيف القومى الفرنسى خلال الفترة من ١٩٧٨ حتى ١٩٨٠ وهى تشمل الآن بحجمها مساحة ١٦٠٠ متراً من الأرفف . وبالنسبة لنشاط هذه الجمعية فى مصر نلحظها فى محاولاتها لربط هذا الاتحاد بمكتبة الاسكندرية ، فقامت بإهدائها ميكروفيلم لبعض هذه الوثائق الخاصة بالشركة ومعظمها مؤلفات دى لسبس وأقرانه من المؤيدين للشركة.

وشاركت هذه الجمعية فى العديد من الأنشطة الثقافية مع المكتبة ، وأيضا باتصالاتها مع هيئة قناة السويس لإنشاء متحف لقناة السويس وترميم حجرة دى لسبس فى الاستراحة الرئيسية بالاسماعيلية والمسجلة كأثر تاريخى. وقد حاولت إعادة تمثال دى لسبس الذى حطمه البورسعيديون إبان العدوان الثلاثى على مصر ١٩٦٥ ، وقد فشلت حتى الآن فى تحقيق هذا الهدف .

وجدير بالذكر أن دى لسبس كان حريصا على إخفاء كل وثيقة تدين الشركة فيما يتعلق بالسخرة فى حفر قناة السويس والمآسى التى عاناها عشرات الآلاف من الفلاحين فى ساحات الحفر . ذلك أنه قد احتفظ لنفسه بحق نشر المعلومات وفرض الصمت على الجميع ، وإصدار تعليماته إلى جميع العاملين بالشركة من الأوربيين بموجب أمر إدارى رقم ٦٤ (٢٤ يناير ١٨٦٢) بالفصل من العمل فى حالة التصريح بمعلومات أو خواطر عن شؤن الشركة إلى وكالات الأنباء أو الصحف التابعة لأي بلد كان أو إلى مجرد أشخاص (راجع ذلك فى كتاب . نتالى مونتل ص١٤) . وقد تم تنفيذ ذلك فى الكثيرين. نذكر منهم دانيل لانج- العضو البريطانى فى الشركة - وعن تفاصيل هذا الموضوع راجع : السيد حسين جلال ، قناة السويس والأطماع الاستعمارية الدولية - القاهرة سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٢٥٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦، ص ص١٨٧-١٨٨

١٣١- زين العابدين شمس الدين، بور سعيد ص ص١١٦-١١٧ .

١٣٢- لمزيد من التفاصيل راجع : السيد حسين جلال، «بورسعيد مركز التقاء ثقافات وحضارات الشرق والغرب» مجلة المؤرخ العربى- العدد العاشر- المجلد الأول، مارس ٢٠٠٢ ، ص ص٣٦٧-٤١١ .

١٣٣- فؤاد فرج، مرجع سابق، ذكره ص٣١٥ .

١٣٤- راجع بالتفاصيل عن هذا الموضوع : السيد جلال ، بورسعيد مركز التقاء ثقافات ، ص ص٣٦٧-٤١١ .

١٣٥- زين العابدين شمس الدين ، بورسعيد، ص ص١١١-١١٢ .

١٣٦- المرجع السابق، ص١١٢ .

١٣٧- المرجع السابق، ص ص١١٣-١١٤ .